"التأثير في المخاطَب (مشهد وعظ لقمان في القرآن الكريم) أنموذجًا"

د. منى بنت سالم الجابرية
أستاذ اللغة العربية وآدابها
جامعة التقنية والعلوم التطبيقية
كلية العلوم التطبيقية بنزوى

الملخص

يُعنى هذا البحث بدراسة تأثير الخطاب القرآني في المخاطَب من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإقناعية، وذلك من طريق مشهد وعظ لقمان لابنه.

وهو يتناول هذا المشهد من زاويتين: تتمثل الزاوية الأولى في النظر إلى المشهد من جهة عرضه على متلقي القرآن على اعتبار أن المخاطِب هو الله ﷻ والمخاطَب هو متلقي القرآن؛ لتبين جوانب تأثير الأسلوب الذي صُوِّر به المشهد وطريقة تقديمه في التأثير على المخاطَب، أما الزاوية الثانية فتتمثل في تأمل الخطاب داخل المشهد؛ باعتبار أن الخطاب صادر من لقمان وموجه لابنه؛ وذلك لتبين مدى تأثير الخطاب الذي وجهه لقمان في وعظه على ابنه، وأسلوبه في التأثير عليه وإقناعه.

الكلمات المفتاحية: لقمان، التأثير، المخاطَب، وعظ، الإقناع.

The Impact on the Addressee (Luqman's Admonition Scene in the Noble Qur'an) as a Model

Abstract

This research deals with the study of the impact of Quranic discourse on the addressee from two aspects:

First: the psychological and emotional aspect

Second: the intellectual and persuasive aspect

This is done through scenes of admonition from the wise man Luqman to his son.

This research also deals with the conversational scene from two sides.

First: the method in which the admonition scene was set up, the way it was presented, and the extent of impact on the person who receives the Quran.

Second: the extent of conversational impact of wise man Luqman which he delivered while admonishing his son.

Keywords: Luqman, influence, discourse, preaching, persuasion.

المقدمة

إن القرآن الكريم يخاطب القلب والعقل معًا، فلا يغفل حاجة القلب من استثارة المشاعر والأحاسيس، وفي الوقت نفسه يجعل للعقل حظًا ومكانة في خطابه، وقد جاء خطابه محققًا أهدافه مراعيًا أحوال مخاطبيه، من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإقناعية؛ ذلك أنه منهج حياة، وسبيل للوصول إلى فلاح الدنيا، ونجاة الآخرة. ويمكن القول إن القضايا في السور القرآنية تعالج من جوانب عدة وبأساليب وطرق متنوعة تتناسب وأحوال المخاطَبين: النفسية والعقلية، على اختلاف مشاعرهم وأحاسيسهم وتنوع مشاربهم في الإدراك.

ورغم تنوع هذه الأساليب، إلا أنها تكون متسقة مع بعضها ولا ينبو منها أسلوب عن الموضوع العام للسورة. ومن الأساليب التي استعملها القرآن الكريم، عرض الموضوع في هيئة قصة أو مشهد تخاطبي بين مخاطِب ومخاطَب -كما هو الحال في وعظ لقمان لابنه- فالمشهد القصصي يأتي منسجمًا مع العناصر الأخرى في السورة؛ ذلك أن القصة في القرآن الكريم -كما هو معلوم- لا تهدف إلى مجرد الإمتاع والمؤانسة، وهي لا تأتي حشوًا واعتباطًا وإنما تحقق أهداف السورة ومقاصدها، وتتعاضد مع الأساليب الأخرى المستعملة فيها. وسيسعى الباحث في هذا البحث تأمل لغة القرآن الكريم وأسلوبه في التأثير على المخاطَب من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإقناعية، وتبين دور المشهد القصصي في تحقيق أهداف القرآن الكريم؛ باعتباره أحد أساليب التأثير النفسي، والتأثير الإقناعي في الخطاب القرآني.

ولا يدعي الباحث السبق في تناول هذه الوصايا، فالذي بين أيدينا نص قرآني تناوله المفسرون على مر العصور، في تفسيرهم القرآن الكريم، وقد استفدت كثيرًا من علمهم، كما توجد دراسات حديثة تناولت هذه

الوصايا نذكر منها على سبيل المثال: هداية الولدان شرح وصايا لقمان، للطهطاوي (علي أحمد عبد العال)، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، وكذلك نظرات وتأملات إيمانية في وصايا لقمان في القرآن "دراسة تفسيرية موضوعية"، العواجي (محمد عبد العزيز)، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 2006م، والوصايا "وصايا لقمان - الوصايا العشر- من وصايا الرسول"، حجاج (جهاد)، د.ط، دار العلم والإيمان، مصر، دسوق، 2007م. وجميع هذه الدراسات تنحو منحى تفسير الآيات وبيان معانيها وتركز على الجانب التربوي لهذه الوصايا، بينما تركز هذه الدراسة على تأثير الخطاب في المخاطَب من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإقناعية؛ وذلك بدراسة الجانب التأثيري لأسلوب القص، ولغته وتأثيرهما في متلقي القرآن، بالإضافة إلى الجانب التأثيري في خطاب لقمان وطريقته في وعظ ابنه.

وبناءً على ذلك ستقوم هذه الدراسة على: مقدمة ومبحثين، سيتناول المبحث الأول عرض المشهد بأسلوب مؤثر، وسيهتم بأسلوب القص وطريقة تقديم المشهد للمخاطَب بالقرآن، أما المبحث الثاني فسيركز على الوعظ بأسلوب مؤثر، ويهتم بخطاب لقمان لابنه، وستعنى الخاتمة بالنتائج. وسيتم الاعتماد على المنهج التحليلي القائم على تحليل الآيات القرآنية في ضوء أهداف البحث.

1- عرض المشهد بأسلوب مؤثر

عُرِض مشهد وعظ لقمان بأسلوب مؤثر من جهة: الموقع الذي احتله في السورة، وانسجامه وتلاحمه مع العناصر الأخرى فيها. فهو جزء لا يتجزأ من الخطاب العام للسورة التي ورد فيها. أضف إلى ذلك التهيئة المناسبة المشوّقة للمشهد، وتنويع عرضه بين السرد وحكاية القول

وتوجيه خطاب مباشر لمتلقي القرآن، بالإضافة إلى انتقاء أفضل الألفاظ والعبارات المؤدية للمعنى.

1-1انسجام المشهد في السياق الذي ورد فيه

إن القرآن الكريم خطاب مترابط منسجم تتميز سوره بالتناسق العجيب بين آياتها، تكتنفها روابط لفظية ومعنوية دقيقة، تتجلى في تأثيرها على المخاطَب من الناحيتين: النفسية الوجدانية والفكرية الإقناعية، فالقرآن الكريم خطاب موجه وليس مدوّنة جُمِعَ فيها أشتاتٌ من مواضيع متفرقة، وإني لأعجب من الذين يدَّعون أن سور القرآن مشتتة لا يربطها رابط، فنراهم يدللون على ذلك بما يؤكد على افترائهم لا على صدقهم وإصابة دعواهم، وقد أثبت القدماء وجود هذا الانسجام في القرآن الكريم، فقد أكد الرازي(604هـ -1207م) أن "القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضًا معجزٌ بحسب ترتيبه ونظم آياته"(1) وقد ركز فيه على التناسب بين الآيات، وعندما بحث عبد القاهر الجرجاني(471هـ -1078م) عمَّا أعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن أكّد أنهم "وجدوا فيه اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا وإتقانًا وإحكامًا"(2) ودرسه الزركشي (794هـ -1391م) في كتابه البرهان في علوم القرآن(3)، وسمَّى البقاعي(885هـ -1480م) تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"(4) قال فيه: "فعلم مناسبات القرآن علم تُعرف منه علل ترتيب أجزائه وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال"(5) وأكد السيوطي (911هـ -1505م) في معترك الأقران أن من وجوه إعجاز القرآن "حسن تأليفه والتئام كلمه ومناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منظمة المباني"(6) وأفرد له كتابًا خاصًا سماه "تناسق الدرر في تناسب السور"(7)، وفي الحقيقة إن

بسط الحديث عن الانسجام في الخطاب القرآني يحتاج إلى استقصاء وبحث قد لا يتسع المقام له هنا، كما أن الحديث عن وجوه التماسك الكثيرة بين آيات القرآن وسوره يحتاج إلى بحث مستقل(8)، وسنعرض ضمن هذه الدراسة ما يؤكد الانسجام بين آيات القرآن الكريم، من طريق تأمل وصايا لقمان والآيات التي سبقتها وسيتم الاكتفاء بالتمثيل بالارتباط بين وصايا لقمان وما سبقها من آيات تجنبًا للإطالة، ولأن الفكرة ستتضح بشكل بارز عبر ربط الآيات بما سبقها دون التعرض لما بعدها. ولعل القارئ يتساءل عن علاقة الحديث عن هذا الانسجام بـهذا المبحث "عرض المشهد بأسلوب مؤثر"، وفي الحقيقة إن الحديث عن انسجام هذه الوصايا مع ما قبلها لا يخرج عن الإطار العام لهذا المبحث؛ ذلك أن الخطاب المنسجم المترابط له أثره الكبير على المخاطَب؛ فهو يجعل الموضوع يصله بنية متماسكة فيقوي فهمه ويزيد من تركيزه لوعي الخطاب وإدراك مقاصده وأهدافه، ويولّد لديه مشاعر وأحاسيس منسجمة مع الخطاب، كما أن عرض المشهد يتعاضد مع الأساليب الأخرى في السورة؛ لتحقيق مقاصدها وهو لا يخرج عن الهدف العام لهذه المقاصد.

ومما حقق الانسجام والترابط بين وصايا لقمان عليه السلام وما سبقها من آيات، استعمال "الواو" العاطفة في مستهل القص في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(9) يصور جانبًا من جوانب الارتباط بين هذه الوصايا وما قبلها فهي تعطفها على قصة الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وتذكر كتب التفسير أن هذه الآيات تشير إلى ما كان يفعله النضر بن الحارث في عهد الرسول ﷺ فقد كان يسافر إلى بلاد فارس فيشتري قصص اسفنديار ورستم وبهرام ويعرضها على الناس وكان هدفه من ذلك

صدَّهم وإلهاءَهم عن الاستماع إلى حديث رسول الله ﷺ[10] فالواو بذلك جمعت بين أنموذجين أحدهما لضال يشتري لهو الحديث ليصد عن سبيل الله تعالى، وآخر لمهتدٍ حديثه أنموذج لصدق الدعوة إلى الله وتنشئة الأجيال على منهاج الحق. إن هذا العطف يضع الأنموذجين أمام متلقي القرآن ليدرك المفارقة بينهما ويستشعر مدى ضلال من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله تعالى ومدى هداية من يسعى بحديثه جاهدًا ليهدي إلى سبيل الله. ورغم أن الأنموذج الأول (النضر بن الحارث) عايش فترة نزول القرآن الكريم، وذلك بالنظر إلى مناسبة نزول الآيات، والأنموذج الثاني (لقمان) عهده سابق على عهد النبوَّة، إلا إنهما قابلان للتحقق والتكرار على اختلاف الزمان والمكان.

وإلى جانب الواو العاطفة يوجد رابط آخر كان له دور كبير في الاتساق بين وصايا لقمان وما قبلها، هذا الرابط هو "الحكمة"، فالمتأمل في الآيات التي قصت وصايا لقمان عليه السلام وما سبقها يستشعر الحكمة ويلمس وجودها حاضرة في كل آية فيها فهي تشكل رابطًا لفظيًا ورابطًا معنويًا نلمسه في جوانب كثيرة عالجتها الآيات؛ فقد تكرر ذكرها لفظًا في ثلاثة مواضع، ففي مستهل سورة لقمان وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بالحكمة حيث قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[11] ووصف نفسه في الآيات السابقة لقص الوصايا بأنه العزيز الحكيم قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[12]، وقد بين في مستهل قص وصايا لقمان بأنه قد آتاه الحكمة، يقول عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ"﴾[13]، فالله حكيم أودع الحكمة في كتابه، وآتاها لقمان عليه السلام. ومن جهة أخرى، فإنه يقترن العلم والعمل في تعريف الحكمة لدى القدماء؛ فقد عرَّفها الأصفهاني (503هـ -1109م) بأنها: "معرفة الموجودات وفعل الخيرات"[14] وقال عنها الرازي(604هـ -1207م): "عبارة عن توفيق العمل بالعلم، فكل من أُوتي توفيق العلم بالعمل فقد أُوتي الحكمة"[15] وعرفها البقاعي(885هـ -1480م) بأنها: "العلم المؤيَّد

بالعمل، والعمل المُحْكَم بالعلم... ولهذا قال ابن قتيبة: لا يقال لشخص حكيمًا حتى تجتمع له الحكمة في القول والفعل، قال: ولا يُسمَّى المتكلم بالحكمة حكيمًا حتى يكون عاملاً بها."[16] فالحكيم هو من يحسن المواءمة بين علمه وعمله، فيستطيع وضع الأمور في نصابها. وبناءً على ذلك، نجد الحكمة حاضرة في كثير من الجوانب التي تناولتها الآيات فهي في الاهتداء بالكتاب الحكيم، وفي توحيد الله وفي إفراده بالعبادة، وفي خلق الكون وتسخيره، وفي وعظ الأبناء وتربيتهم بتوجيههم إلى الطريق المستقيم، وفي عدم الاقتصار على الاهتداء، والتوجه إلى الغير بالنصح والإرشاد، وفي شكر الله تعالى. وفي المقابل فإن من تمام البعد عن الحكمة الإعراض عن الآيات وعدم الانتفاع بها وصم الآذان، والصد عن سبيل الرشاد.

وإلى جانب كون الهداية والرشاد داخلة ضمن الحكمة، إذ يضع المهتدي عبادته في موضعها الصحيح، والحكيم من لا يكتفي بكونه مهتديًا وإنما يتوجه إلى غيره بالنصح والإرشاد، فإن الهداية والرشاد تشكل من جهة قوّة حضورها في الآيات رابطًا من الروابط التي أسهمت في اتساق الآيات، ففي مستهل السورة تحديد لسبيل من سبل الهداية تكتنفه الحكمة هو الكتاب المتصف بالحكمة والمقصود به هنا القرآن الكريم الذي يمثل أنموذجًا للكتب السماوية، أودع الله فيه الحكمة ليكون سبيل هداية ورشاد، وهو رحمة للمهتدين به يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الثانية من هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾[17] إن هذا الكتاب المتصف بالحكمة أُشير إلى آياته باسم الإشارة للبعيد "تِلْكَ"، الدال على علوها ورفعة شأنها، وهي سبيل هداية ورحمة للمحسنين الذين وصفوا بأوصاف تدل على تميزهم عن غيرهم كما تميزت آيات الكتاب، وهذا مدح للكتاب، ومدح للمهتدين به. وكما تكون الهداية بالكتاب الحكيم فإنها تكون كذلك بعباد اصطفاهم الله بالحكمة ليكونوا هداة مهتدين ولقمان أنموذج لهذه الفئة، ووعظه يمثل

سبيلًا من سبل الهداية، أضف إلى ذلك لا بد للداعي إلى الله من التسلح بالحكمة؛ لذلك ذُكِرَ اتصاف لقمان وتسلحه بها قبل عرض وصاياه، وكأن الحكمة منهج من مناهج الدعوة إلى الله وإلى الخير والفلاح.

ومن جهة أخرى نجد الآيات في مستهل هذه السورة قد قسمت الناس إلى فئتين في الهداية والانتفاع بآيات الله؛ فئة المحسنين قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾[18] فهذه الفئة يهديها الكتاب الحكيم فتتجلى الحكمة في أعمالها الصالحة وفي عبادتها لربها، وفي يقينها بالآخرة، وفئة أخرى مقابلة لها، بعيدة عن الحكمة، ببعدها عن الهداية وإبعادها لغيرها قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[19] فهذه الفئة ضالة مضلة بعيدة تمام البعد عن الحكمة تشتري لهو الحديث لتضل عن سبيل الله وتقابل الآيات بالاستكبار والإعراض. إن لقمان عليه السلام يمكن تصنيفه ضمن الفئة الأولى فهو مهتد في نفسه هادٍ بوعظه لغيره، وهذا بعكس الفئة الثانية التي لم تسترشد بآيات الله فضلت وأضلت غيرها، فعطف قصته على قصتهم -كما ورد سابقًا- من باب عطف أنموذج مهتدٍ على أنموذج ضال، فيستشعر المخاطَب بالقرآن الفرق بين الهداية والضلال ويدرك البون الشاسع بين المهتدي والضال. ومن جهة أخرى، يمكن القول إنه لما ذُكِرَ المهتدون والضالون وغدا الأنموذجان واضحان في ذهن المخاطَب تاقت نفسه وتطلعت إلى معرفة كيف يسلك سُبُل المهتدين؟ وكيف يربي النشء على طريق الهداية؟ لذا عُرِض عليه مشهد حي لمعالم الهداية بما فيها من توحيد وخُلُق وعبادة... إلخ، وكذلك الطريقة المثلى في وعظ الأبناء وتربيتهم، وإرشادهم إلى طريق الهداية.

إن سورة لقمان في إطارها العام تدعو إلى توحيد الله عز وجل وهو من الروابط التي أسهمت في إظهار هذه السورة منسجمة يقول الله سبحانه وتعالى قبل قص الوصايا مخاطبًا المشركين الذين حادوا عن توحيده: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[20] إن

هذه الآية خطاب مباشر وتحدٍ للمشركين الذين يدَّعون وجود شريك لله في الخلق والملك، وهنا تمت الإشارة بالقريب "هذا" إلى بعض من مخلوقات الله استحضارًا لها بتقريب المتحدَّى به قريبًا محيطًا بالمتحدَّى واضحًا جليًا. وفي الحقيقة إن التحدي بتقريب المتحدَّى به أشد وقعًا، وأشد إبكاتًا من التحدي بشيء غائب، أضف إلى ذلك أنهم قد أُمِروا أمر تعجيز "أروني" والأصل في الأمر أن يكون في مقدور المأمور القيام به وتنفيذه، ولكن الله يعلم أنهم لا طاقة ولا قدرة لهم على ذلك فلن يجدوا خلقًا خلقه غيره فلا وجود لخلق للذين يعبدونهم من دون الله، وهذه قمة الضلال ومنتهاه، وهنا خُتمت الآية بإثبات أنهم غارقون في ضلالهم، قال تعالى: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[21] ومن جهة أخرى نجد وصايا لقمان تُستهل بالنهي عن الشرك فأول منادى له في وصاياه عليه السلام هو نهيه ابنه عن الاقتراب من ساحة الشرك: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾[22]. والملاحظ كذلك أن المشركين وُصِفوا بأنهم ظالمون، قال تعالى: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[23]، فالمشرك ظالم، ونجد لقمان في وصاياه يعلل نهيه لابنه بعدم الشرك بـ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[24] فالشرك في الآيتين ظلم، والمشرك ظالم.

لقد عددت الآيات التي سبقت قص الوصايا نعم الله ﷻ التي تحيط بالخلق قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[25] وجميع هذه النعم توجب التوجه إلى الله بالشكر عليها. إنه لما بينت الآيات السابقة على مشهد وعظ لقمان لابنه فضل الله ﷻ على الخلق تاقت نفس متلقي القرآن إلى شكر الله، فانجلى المشهد ليرشده إلى مجالات الشكر: شكر الله واهب النعم؛ وشكر نعمة العلم والحكمة، ونعمة الأبناء، ومسخر الوالدين، العدل في حكمه، فلا تخفى عليه خافية، ولا يفوته شيء في جزائه وثوابه، وهذا في حد ذاته نعمة على الخلق. ومن جهة أخرى فإن الشكر قد ورد أربع مرات في

قص الوصايا قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(26)، ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾(27) ويدخل الشكر في مجال الحكمة فمن الحكمة أن يكون الإنسان شاكرًا لله، ومن شكر الله أن يكون الإنسان داعيا إليه، ومن شكر نعمة الأبناء تعهدهم بالرعاية والاهتمام والوعظ، وهذا ما صوَّره مشهد وعظ لقمان لابنه.

كان هذا عرضًا سريعًا لبعض من الروابط التي أظهرت انسجامًا وتلاحمًا بين الوصايا وما قبلها فالمخاطَب بالقرآن الكريم قبل أن تُقص الوصايا عليه يستشعر دور الحكمة في الهداية والرشاد، والفرق بين المهتدين بحكمة الكتاب والضالين البعيدين عن الحكمة وعن الرشاد، وجلال نعم الله ووحدانيته، فيعايشها قبل قص الوصايا كما يعيشها مرة أخرى في المشهد القصصي، على هيئة خطاب موجه من حكيم لابنه، فيستوعبها ذهنه وتترسخ في نفسه، بالإضافة إلى أن المشهد يعالج هذه الفكرة من زاوية أخرى هي ضرورة تنشئة الأبناء على هذه المحاور، والدعوة إلى الله، والتخلق بأخلاق المحسنين، وهو بذلك يقدّم أنموذجًا قابلًا للتكرار والحدوث على اختلاف الزمان والمكان.

2-1 التوطئة المناسبة للمشهد.

قبل الدخول في نقل خطاب لقمان لابنه تمت تهيئة متلقي القرآن نفسيًا وذهنيًا بمدخل قدَّم له وصفًا مهمًا لمحاور المشهد: المخاطِب والمخاطَب وموضوع الخطاب، ويمثل هذا المدخل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(28) فهو يحدد المعالم المهمة للمخاطِب، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ الذي يصور علاقته بالمخاطَب، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ الذي يوضح موضوع الخطاب، وبذلك تكتمل المعالم الرئيسة للمشهد، قبل عرضه على المتلقي؛ ولهذا أثره عليه، إذ يجعله يقبل بتركيز

واستشراف وتشوق لمعرفته ووعيه، ويدرك الهدف العام من توجيه الخطاب، ويتصور الجو النفسي الذي يحيط بالشخوص، وما يربطهم من علاقات وروابط.

إن قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[29] يرسم المعالم المهمة للشخصية الرئيسة في المشهد "لقمان" وكل كلمة في هذه الآية لها أثرها ودورها في ذلك. فقد استُهل القص باستعمال (لقد) وهو مكون من "لام القسم"[30] ، و "قد" حرف دال على التحقيق، واقترانهما يفيد التوكيد والثبوت، فهما من أدوات التوكيد في اللغة العربية، وهما لا يقترنان إلا بالفعل الماضي، فتوكيدهما إثبات للحدوث والكينونة في الماضي. إن استعمال "لقد" قبل بدء القص يعطي المقصوص دلالة توكيدية على صحة حدوثه ووقوعه، فهو يقدم للمتلقي شحنة توكيدية قبل القص فيقبل على وعي ما يُقص عليه ويستشعر كونه في حيز الواقع المهم الذي لا مراء في حدوثه، وبذلك يثبت لديه أهمية ما يُقص عليه وحتمية وقوعه قبل قص الخبر وعرضه عليه؛ مما يجعله في يقظة ذهنية تامة لتلقيه، واستعداد لوعيه وقبوله، وهذا يُعد من تقنيات القص القرآني. ومما يُعطي هذه الوصايا شحنة توكيدية أخرى قوله تعالى: "آتَيْنَا" دون "أعطينا" ذلك أن "الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله، لأن الإعطاء له مطاوع تقول: أعطاني فَعَطَوْتُ ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيت، وإنما آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له."[31] وآتينا من الأفعال التي "إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها فالإتيان إذن أقوى من الإعطاء"[32] والحكمة "إذا ثبتت في المحل دامت"[33]. ومما يزيد من تشويق المخاطب لهذه الوصايا وإقباله عليها ووعيه لها، إسناد "آتَيْنَا" إلى ضمير "نا" الدال على التعظيم إشارة إلى عظم ما آتى الله ﷻ لقمان من الحكمة، فالذات العظيمة أفعالها

عظيمة. إن جميع هذه المؤكدات ترسِّخ في ذهن متلقي القرآن اتصاف لقمان بالحكمة قبل عرض خطابه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الهدف من ذكر ذلك قبل عرض الوصايا؟ وهل سيكون له تأثير على متلقي القرآن؟

إن كتب التفسير تذكر حديثًا عن اسم لقمان عليه السلام ونسبه، ومكان عيشه، والأعمال والمهن التي كان يمارسها، فقد قيل: إنه لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، أسود نوبي من مصر... إلخ، وذكرت المراجع كذلك أنه كان نجارًا أو نجادًا أو خياطًا أو راعيًا للغنم... إلخ، وقيل كان نبيًا، كما قيل إنه كان رجلا صالحًا ولم يكن نبيا(34). وهذا كله لا يهمنا وقد لا يضيف إلى الهدف من قص الوعظ شيئًا جديرًا بالاهتمام، الذي يهمنا هو ما قدمه الله سبحانه وتعالى من وصف له في مستهل عرض وصاياه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ إن هذه الآية الكريمة تؤكد أن الله قد آتى لقمان الحكمة. إن وصف لقمان عليه السلام بالحكمة قبل عرض وعظه لابنه على متلقي القرآن نكت منها: إنه يهيئه للإقبال على هذه الوصايا بتشوق واستشراف وتطلع، إذ يحرك نفسه فيكون شغوفًا ومتلهفًا لتلقي الوعظ ومعرفة فحواه، وقبوله، فلا يفوت جزءا منه، كما ينبهه لأهميتها، فعندما يعلم أن الذي سيُعرض عليه وصاياه يتوشح بهذه الصفة؛ فإنه سينتبه لفهمها ووعيها بتركيز، أضف إلى ذلك أن وصفه بالحكمة يوحي بأهمية هذه الوصايا ومصداقيتها فلا يصدر من حكيم إلا القول الموافق للحكمة. وبناءً على ذلك فإن الحكيم لابد أن يكون شخصًا تتميز أفعاله وأقواله بالإصابة والاتزان وهو بذلك يستحق أن يقبل على كلامه بوعي وإنصات. والتساؤلات التي تتبادر إلى الذهن هنا: ما فائدة ذكر الشكر في هذا السياق وما العلاقة بينه وبين الحكمة في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(35)؟ ولماذا قال: ﴿اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: اشكر الله؟ وما العلاقة بين الشكر والكفر في قوله: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ

فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؟ ولماذا قُدِّم الشكر على الكفر؟ وجاء (يَشْكُرْ) بصيغة الفعل المضارع بينما "كَفَرَ" جاء بصيغة الماضي؟ لقد صُوِّرَت الحكمة في القرآن الكريم على أنها نعمة من نعم الله -تعالى- يختص بها من يشاء، وهذا ما نلمسه في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[36] وما دامت الحكمة نعمة عظيمة فيجب أن تقابل بالشكر يقول الجوزي في زاد المسير: "المعنى: وقلنا له: أن اشكر الله على ما أعطاك من الحكمة"[37]

ومن جهة أخرى فإن من الحكمة أن يكون الإنسان شاكرًا لله –عزوجل- قال الرازي(604هـ -1207م): "آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين"[38] وشكر الله ﷻ هو أساس الحكمة ولبها وهو مبدأ الكمالات علمًا وغايتها أصلاً"[39] ونجد الحكمة في شكر الله على نعمة الهداية، وفي شكر نعمة الأبناء، ومن شُكر نعمة الأبناء اتباع الحكمة في تربيتهم ورعايتهم، فهي منهج للتربية والدعوة إلى الله، قال تعالى حاثًا النبي ﷺ على اتخاذها سبيلًا للإرشاد إلى الطريق المستقيم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[40] فقد اقترنت الحكمة بالوعظ في هذه الآية ولقمان قد تلبس بالحكمة في وعظه ابنه. وفي قوله تعالى: "أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ" لام متصلة بلفظ الجلالة وهذه اللام تعمل على تقوية المعنى وتوكيده وإثبات اختصاص الشكر لله ﷻ فـ "هي لام ملتزم زيادتها مع مادة الشكر للتأكيد والتقوية"[41] فتعدية الشكر "باللام أفصح"[42] من أن يأتي دونها. أما صيغة المركب الشرطي: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ فهو يحقق الترابط الدقيق بين مضمون الشرط ومضمون الجزاء، كما أنه يحصر فائدة الشكر ونتيجته للشاكر وليس للمتوجه إليه بالشكر، "والشرط أدل على ذلك من الإخبار"[43] ومما يزيد المعنى توكيدًا وجود اللام في "لِنَفْسِهِ"، فهي تعطي الجملة شحنة

توكيدية، تصب في المعنى الإجمالي للجملة وهو إثبات فوائد الشكر لذات الشاكر وفي هذا حث على مزيد من الشكر، ومما يشحذ النفس على الشكر أن المشكور لا يفيده الشكر ولا يضره الكفر، وإنما تمام الفائدة عائدة على الشاكر نفسه لا يقاسمه فيها أحد، فهذا يجعل النفس تنشط للشكر، وجني ثماره، فالشاكر إذا ما استشعر أن فوائد شكره تعود عليه وتختص به، فإن ذلك سيمثِّل حافزًا له لمزيد من الشكر كما يجعله في حال شكر مستمر.

إن شكر الله يزيد النعم ويباركها ويديمها، قال تعالى مؤكدًا هذه الحقيقة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[44]. والشكر كما قال الثعالبي في سحر البلاغة وسر البراعة: "نسيم النعم، وهو السبب إلى الزيادة، والطريق إلى السعادة، الشكر قيد النعمة ومفتاح المزيد، وثمن الجنة... الشكر قيد النعم وشكالها وعقالها"[45] وهو "قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة"[46]. ولولا هذه الفوائد التي يجنيها الشاكر من توجهه بالشكر لله تعالى لما توعد الشيطان الشاكرين وتقصدهم في هذه النعمة قال تعالى حكاية عنه: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [47] ومن جهة أخرى يوجد بين الشكر والكفر علاقة تضاد ، فالشكر إظهار نعمة المنعِم على المنعَم عليه، أما الكفر فهو الستر والتغطية يقول الأصفهاني(503هـ -1109م): "الشكر: تصور النعمة وإظهارها"[48] وقال أيضا: "الكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص والزرّاع لستره البذر في الأرض"[49] وفي عمدة الحفاظ: "الشكر تصور النعمة وإظهارها، ويضاده الكفر فهو نسيان النعمة وسترها"[50] فالشاكر عندما يشكر نعم الله تعالى عليه، يظهر حق الله ويعترف بفضله عليه، وينسب النعم لله تعالى، والعكس يكون مع الكافر، فهو يحاول ستر فضل الله وحقه في العبادة وهو لا يعترف بفضل الله ولا ينسب النعم إليه. وفي القرآن الكريم يتضاد الشكر والكفر

وباختلافهما يفترق جزاؤهما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(51) وقد تم تقديم ذكر الشكر على الكفر في قوله: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، ذلك أن المقام في هذه الآيات مقام نصح ووعظ وهداية وإرشاد فتقديم الإيجابي وما فيه جائزة أفضل من تقديم السلبي، ويوجب العقاب، وهذا يعطي النفس إقبالا على الطاعة، يقول ابن عادل في اللباب معللا تقديم الشكر على الكفر في هذه الآيات وتقديم الكفر على الشكر في سورة الروم: "قدم الشكر على الكفران ههنا وقال في الروم ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾(52) لأن الذكر في الروم كان للترهيب... فقدم التخويف، وهنا الذكر للترغيب لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد"(53). ومن جهة أخرى يتناسب هذا التقديم مع السياق قبله فقد جاء قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فالأنسب أن تأتي بعده نتيجة هذا الشكر، وليس ما يضاده، وهذا من باب التناسق والانسجام في الخطاب.

وقد عُبِّر مع الشكر بالفعل المضارع "يَشْكُرْ"، بينما جاء مع الكفر "كَفَرَ" بالفعل الماضي لأن صيغة المضارعة تدل على التجدد والاستمرار، وهذا ينسجم مع المعنى المعجمي للشكر، كما يتناسب وطبيعة نعم الله تعالى؛ فالشكر في معناه المعجمي يعني: إظهار نعمة المنعِم على المنعَم، ونعم الله ﷻ مستمرة متجددة لا تنقطع عن الإنسان في كل وقت وحين، في حياته وبعد مماته، فقد يهيئ له من يدعو له ومن يغسله ويكفنه ويكرمه بالدفن، والجنة والنار من نعم الله تعالى، فالجنة جزاء المتقين هي نعمة من الله وفضل، والنار جزاء الكفار الظالمين هي نعمة من الله على المتقين؛ إذ يُجازى بها من يقف على طرفي نقيض من المؤمنين فلم يترك الظالمين سدى يفعلون ما يشاؤون فلا يحاسبون ولا يُقتص منهم على أعمالهم. قال تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(54) وقال: ﴿وَإِنْ

تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(55)؛ ولذلك فلا بد للإنسان أن يكون في حال شكر دائم مستمر، وكلما جدد الشاكر شكره تضاعفت النعم ودامت، ونجد أبواب الشكر كثيرة ومتنوعة، بتنوع النعم وتعددها، وهو يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح(56).

ومن جهة أخرى، يمكن القول إن الكفر من الأفعال الحادثة فكل جزء يقع منه فهو تام منقض، وهو من الأفعال التي بمجرد حدوثها تكون في حيز الوجود، فلو قال شخص لا يوجد إله للكون، معتقدًا ذلك، فقد وقع الكفر منه، وكذلك لو لم يعترف بفضل الله عليه، أما الشكر فهو لا يكون مستوفيًا من الإنسان لتجدد النعم واستمرارها عليه فمهما شكر فإنه لن يفي حق الشكر لهذه النعم، يقول الرازي(604هـ -1207م): "الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله، بل أبدًا يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود... فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيها على أن الشكر بكماله لم يوجد، وأما الكفر فكل جزء يقع منه فهو تام، فقال بصيغة الماضي"(57).

وقد ختمت هذه الآية بحقيقة مثبتة مؤكدة يمثلها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهنا نجد لفظ الجلالة "اللَّهَ" الدال على الألوهية، وصفتين من صفاته "غَنِيٌّ" و"حَمِيدٌ" فالشكر يكون متوجهًا لله الإله الحق، فهو المنعم على الإنسان بجميع النعم. وكي لا يتوهم أن الله محتاج إلى هذا الشكر أو أنه يعود عليه بالنفع والفائدة ذكرت صفة "غَنِيٌّ"، وهي تشير إلى الكفاية وعدم الحاجة إلى أي أحد، فلا يتوهم متوهم أن الله قد أمرنا بالشكر لحاجته إليه، وإنما لحاجتنا نحن إلى ذلك. أما "حَمِيدٌ" فهو على وزن فعيل وهو يدل على أنه حقيق بالحمد وإن لم يحمده الحامدون، كما يأتي بمعنى "بمفعول"؛ أي أنه محمود في ذاته وأفعاله فكل المخلوقات تنطق بحمده، يقول الألوسي: "(حَمِيدٌ) حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد

أو محمود بالفعل ينطق بحمده تعالى جميع المخلوقات بلسان الحال فحميد فعيل بمعنى محمود على الوجهين."[58] والملاحظ هنا وصف الله بالحميد دون الشكور رغم أن سياق الآية قد ذكر الشكر وكرره في ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾و ﴿مَنْ يَشْكُرْ﴾ و﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ﴾ وفي الحقيقة إن "حَمِيدٌ" هنا أنسب من "شكور" فالحمد يكون أعم من الشكر يقول الألوسي: "الحمد متضمن الشكر فهو رأسه... فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعًا"[59] وكأن معنى الشكر ظل حاضرا وأضيف إليه معنى أعم وأشمل منه. ومن جهة أخرى فإن الشكر يكون مقابلًا للنعمة أما الحمد فإنه يكون لما حسن من صفات الذات وأفعالها، فنتوجه بالشكر لمن يسدي إلينا معروفًا ونحمد من يسدي إلينا معروفًا ومن تستحسن أفعاله وصفاته، وإن لم يقدم إلينا شيئًا.

وهنا اتضحت أهم معالم الشخصية الأولى في المشهد بأهم صفاتها وهي "الحكمة" فبهذه الصفة تتهيأ النفوس وتتشوق لقبول هذا الوعظ وتتهيأ العقول للوثوق في صحته ووعي ما يقوله، وحمله على محمل الجد، وتأخذ هذه الوصايا مقاما من التعظيم وقدرا من الأهمية، فهي منسوبة لذات حكيمة. إنها شخصية يجب الإنصات بتركيز لما يصدر عنها من قول، فقولها يدور في فلك الحكمة، وهذا الوعظ رد فعل شاكرة لنعم الله تعالى، مع التأكيد على أن الله الإله الحق غني حميد فشكرنا أو كفرنا نتائجهما مختصة بنا وفي هذا حث للمخاطَب بالقرآن وتنشيط له بأن يسعى جاهدًا بأن يكون شاكرًا وهذه الموعظة تُعد بابًا من أبواب الشكر وأنموذجًا حيًا بإمكان المقصوص عليه الخطاب أن يحتذيه.

وبعدما اتضحت معالم الشخصية الأولى (المخاطِب)، جاء الانتقال إلى الشخصية الثانية في المشهد التخاطبي وهي المتوجه إليها بهذا الوعظ، وقد حددها قوله: "لابنه"، إن هذه الكلمة تظهر أهم صفة من صفات المخاطَب، إلى جانب ما تحمله من المعاني العميقة والدقيقة تضيء جوانب كثيرة مرتبطة بهذا المقام، وما تلقيه من ظلال المشاعر

والأحاسيس التي تربطه بالمخاطِب وتحفهما في المشهد التخاطبي، كما توحي بمصداقية الخطاب والإخلاص في توجيهه، فالأب يكون صادقًا مخلصًا في وعظه حريصًا تمام الحرص على من يتعهده برعايته واهتمامه؛ لذلك اختيرت هذه الكلمة "ابن" دون "ولد" فكلمة "ولد" تحمل معنى الولادة، وعلاقة الكينونة والوجود، وهي تُستعمل في القرآن الكريم فيما يتعلق بالولادة كالميراث فالولد يرث والديه ويرثانه بناء على رابط الولادة قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾(60) وكذلك ما يتعلق بالرضاعة قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾،(61) والتكاثر بالمال والولد قال تعالى: و﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(62) وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾(63)، أو بإثبات أن الحكم يوم القيامة قائم على العدل والعمل الصالح ولن تنفع الأموال ولا الأرحام ومن بينهم الأولاد قال تعالى: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (64) أما كلمة "ابن" فتشير إلى التربية والنصح والإرشاد والرعاية والاهتمام وهذا الوعظ يؤكد ذلك. وقد ورد في الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري(395هـ - 1005م): "الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة...وقيل: أصل الابن التأليف والاتصال."(65) ومما يؤكد أن العلاقة بين "الأب" و"الابن" لا تقتصر على الولادة أن الآباء في القرآن الكريم قد يكونون الأجداد قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (66) "ويسمى العم مع الأب أبوين قال تعالى في قصة يعقوب: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(67) وإسماعيل لم يكن من آبائهم وإنما عمهم"(68). إن

القرآن الكريم يستعمل "ابن" عندما يظهر مدى تعلق الإنسان بأبنائه وأنهم الأغلى في قلبه، فنجد في مشهد الرعب والفزع يوم القيامة يبدأ الإنسان بالفرار من أقاربه فيكون الأبناء هم آخر من يفر منهم، لشدة تعلقه بهم في الدنيا(69)، أما في مشهد الافتداء من العذاب فالأبناء هم أول من يخطر على بال المجرم ليفتدي به من عذاب يوم القيامة، لأنهم الأغلى والأحب لديه، وهو مقبل على عذاب شديد فلشدة هلعه منه جاء بالأغلى لينجو من العذاب(70)، ونجد نوحاً عليه السلام يناشد ابنه برباط البنوة والأبوة التي تربطهما علَّه يرق قلبه فيؤمن وينجو من طوفان الدنيا ومن نار الآخرة،(71) ومن جهة أخرى فإن إبراهيم عليه السلام ناشد أباه بهذا الرابط(72). في حين إن أباه لم يكترث لذلك فناداه باسمه وقد حل كل عروة تربطهما(73). إن كلمة "ابن" تقتضي أبًا، والأب هو المربي والمتعهد بالرعاية والصلاح، ولقمان عليه السلام يؤدي في وعظه دور الأب المتعهد بالتربية والسمو والرقي بابنه، هذا الدور الذي قد يغيب عن بعض الوالدين فيقصرون أنفسهم على دور الولادة ويتناسون دورًا أسمى متمثلًا في "الأبوة"، فليس كل والد هو أب لأبنائه، إن رابط البنوة والأبوة يقتضي تقمص الأب دور المربي، وهذا يشير إلى وظيفة سامية للوالدين عليهم أن يراعوا حقها، فيكونوا والدين وآباء، وهذا الوعظ من لقمان، يوجه إليهم رسالة مهمة لينتحلوا هذا الدور فيتوجهون بالوعظ والإرشاد لأبنائهم فمن الحكمة تربيتهم بالوعظ والنصح والإرشاد، ومن باب شكر الله تعالى على نعمة الأبناء إصلاح حالهم عقيدة وعبادة وتعاملًا مع أفراد مجتمعهم، وتعاهدهم بالتربية في رياض الدين. ويمكن القول إن تحديد العلاقة بين طرفي الخطاب بالأبوة والبنوّة القائمة على الرعاية والاهتمام يوحي لمتلقي القرآن أن الهدف من الخطاب لا تشوبه شائبة، إنما نابع من القلب، فالنصيحة والوعظ عندما تكون صادرة من الأب الذي هو أحرص الناس على صلاح أبنائه ورعايتهم والإخلاص لهم تكون نابعة من قلب محب مخلص في وعظه حريص تمام الحرص على من يعظه فلا شك في فوائد هذه النصيحة ومصداقيتها، وهذا يجعل

متلقي القرآن يقبل عليها بنفس مطمئنة، كما يجعل الابن واثقًا من كلام أبيه.

وبعدما اتضحت شخصيتا المخاطِب والمخاطَب تم الانتقال إلى موضوع الخطاب وهدفه وأسلوبه، وقد بينه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ يحدد لنا موضوع الخطاب وإذا ما بحثنا في معاجم اللغة عن معنى "الوعظ" فإننا سنجد تعريفات عدة له، فقد عرفه الخليل(711هـ - 1311م) بأنه: "التذكير بالخير وما يرق له قلبه"(74) وفي الصحاح: "الوعظ: النصح والتذكير بالعواقب"(75) وفي مقاييس اللغة: "وَعَظَ الواو والعين والظاء كلمة واحدة فالوعظ التخويف"(76) وفي لسان العرب: "النصح والتذكير بالعواقب"(77) وفي عمدة الحفاظ: "الوعظ: التخويف، وقيل زجر مقترن بتخويف"(78) وفي المصباح المنير: "وَعَظَه يَعِظُه وَعْظًا وعِظَةً: أمره بالطاعة ووصَّاه بها"(79) وعرفه الفيروزآبادي (817هـ -1414م) في القاموس المحيط بقوله: "وعظه يعظه وعظًا وعِظة وموعظة ذكَّره ما يُليّن قلبه من الثواب والعقاب"(80) وعرفه في بصائر ذوي التمييز: "زجر مقترن بتخويف"(81)، الذي يبدو من هذه التعريفات أن الوعظ ينحو منحى التلطف والترفق والتذكير بالنتائج، واعتباره "تخويف"، لا يمنع من أن يُتبع الأسلوب الرقيق في التخويف بالعواقب، أما تعريفه بأنه "زجر" فالذي يبدو أن السمين(657هـ - 1258م)، قد أورده من باب ذكر الآراء المختلفة أو المتعددة بدليل قوله: "وقيل" وقد تبناه الفيروزآبادي(817هـ - 1414م) في بصائر ذوي التمييز دون القاموس المحيط، ولعله في عدِّه الوعظ زجرًا راعى استعماله في الصوت ذلك أن "الزجر" "يُستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى"(82) والوعظ توجيه بصوت وهو قد عرّف الزجر في بصائر ذوي التمييز بقوله: " الزَّجر: طرد بصوت، ثم يُستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى"(83) وإني أتحفظ على عدِّه الوعظ زجرًا لما فيه من تلطف وترفق يخلو منه الزجر وهذا ما أكدته المعاجم اللغوية

-فيما ورد سابقًا- فالوعظ فيه تحريك للمشاعر والأحاسيس بلطف ولين. والجدير بالذكر تأتي تسمية من يقوم بالإرشاد في الجانب الديني واعظًا دينيا وليس ناصحًا أو زاجرًا؛ لأن الدعوة إلى الله ﷻ يجب ألا تكون بجفاء إنما باستثارة المشاعر والأحاسيس وترقيق القلوب وإقناع العقل، وسيأتي في المبحث الثاني من هذه الدراسة ما يثبت ذلك من خطاب لقمان لابنه. ومن جهة أخرى فإن تصنيف مجال الخطاب بأنه وعظ، يجعل المتلقي يحاول جاهدًا أن يأخذ الأسس التي بني عليها على الوعظ ويدركها لتكون له دعائم في تربيته لأبنائه أو في توجهه للوعظ لأي كان. والتساؤل الذي يتبادر إلى الذهن هنا ما العلاقة التي تربط بين الوعظ والحكمة؟

يمكن القول: إن الوعظ الذي توجه به لقمان لابنه يترجم في مجمله جانبًا من جوانب الحكمة؛ ذلك أن من الحكمة أن يكون الإنسان متعظًا في نفسه واعظًا لغيره صالحًا في نفسه مصلحًا لغيره، فمن الحكمة صلاح النفس وإصلاح المجتمع يقول الزجاج(311هـ -923م) رابطًا بين الحكمة والوعظ: "هذه الموعظة حكمة"[84] والحكمة سبيل من سبل الدعوة إلى الله تعالى، فقد أُمِر الرسول ﷺ أن يعتمدها في دعوته إلى الله سبحانه قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[85]. وبذلك تكتمل لدينا إحداثيات المشهد: الزمان والشخوص وموضوع الخطاب، فالزمان سابق ماضٍ مؤكد الحدوث والكينونة، والمخاطِب هو لقمان المتصف بالحكمة وتربطه بالمخاطَب علاقة أبوة وبنوة، والموضوع الوعظ، الذي يبدو من الموضوع أنه يدور في إيجاد شخصية متكاملة ناجحة دنيا وآخرة راقية في إيمانها سامية بأخلاقها منسجمة مع مجتمعها، بأسلوب رقيق لطيف يأخذ بالقلب والنفس والعقل. وبناءً على ما جاء في هذا المبحث يمكن القول إنه قبل بدء عرض الوصايا على متلقي القرآن تم التمهيد لذلك بمُدخل رائع كان له دور بارز في تهيئته نفسيًا وذهنيًا لتلقي الخبر

وتشويقه إليه فيدرك أن الكلام الذي سيُقص عليه ليس مجرد خبر عابر، أو قصة للسمر وإنما هو حديث يجب الإنصات إليه وحمله محمل الجد، صادر من شخص حكيم موجه لفلذة الأكباد، دائر في موضوع ينم عن صلاح وموجه لصلاح، كل هذا بلغة دقيقة، وأسلوب شائق رقيق.

3-1 عرض المشهد بأساليب متنوعة

إن القرآن الكريم ينوع في أساليبه فتأتي منسجمة متناسقة تتعانق لتحقيق الأهداف والمقاصد لذلك فإننا نجد في مشهد وصايا لقمان تعاضد السرد والنقل المباشر للقول واعتراض المشهد بتوجيه خطاب مباشر لمتلقي القرآن في تحقيق الهدف من عرض المشهد؛ فاضطلع السرد - كما اتضح من المبحث السابق- برسم الإحداثيات المهمة للمشهد، والتمهيد لحكاية خطاب لقمان، ووجه النقل المباشر للقول متلقي القرآن إلى منبع الخطاب كما أكسب المشهد حيوية.

إن عرض الموضوع أو الفكرة في هيئة مشهد تخاطبي حي يستثير مخيلة المتلقي فيرى المشهد ماثلًا أمامه، الأمر الذي يجعل المعنى راسخًا في ذهنه متمكنًا من نفسه؛ إذ يُترك للشخوص مجال ودور في إيضاح الفكرة، فيعبرون عن مكنوناتهم، فيستشعر متلقي القرآن ما يلف المشهد من مشاعر وأحاسيس تربط بين الشخوص فيصغي إليها وهي تتخاطب ويفكر ويتأمل خطابها وكأنه قريب منها، وهذا ما سيؤكده المبحث اللاحق. ولم يكن متلقي القرآن بعيدًا عن المشهد فقد تم الالتفات إليه بتوجيه خطاب مباشر فتحول من مستمع إلى مخاطَب، وكأننا انتقلنا من زمن المشهد أو المقصوص الذي هو الماضي، إلى حاضر القص، فيجد المخاطَب بالقرآن نفسه موجهًا إليه وعظ مرتبط بوشائج بوعظ لقمان لابنه وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ

وَهْنًا عَلَى ...ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[86]. إن هاتين الآيتين تعترضان وصايا لقمان فبعد أن بدأ عرض الوصية الأولى التي توجه بها لقمان لابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[87] تم قطع الوصايا واعتراضها بهاتين الآيتين، ولكن ما مناسبة هذا الاعتراض؟ وما الوشائج التي تربطهما بالوصايا؟ ولماذا تم توجيه الخطاب إلى متلقي القرآن؟

إن هاتين الآيتين خطاب مباشر من الله ﷻ إلى كل ولد، وصية موجهة منه إليهم تجاه والديهم،[88] وقد جاء مضمونهما لتأكيد ما في الوصايا من النهي عن الشرك بالله تعالى[89]؛ لتأكيد خطره، ولأن العقيدة هي أول ما يبدأ به في الإصلاح، وتمثلان تحذيرًا للمخاطب بالقرآن وتنبيهًا له بأنه هو أيضًا مأمور بالبعد عن ساحة الشرك وعدم الاقتراب من حدودها فيثبت على التوحيد، ولو وُجِهَت إليه الدعوة إلى الشرك من أحق الناس إليه بحسن الصحبة، فعليه ألا يتهاون في عقيدته، التي تُقدَّم وشيجتها على وشائج الدم والقرابة والرحم، إنها وصية من الله ﷻ عبر الزمان والمكان والشخوص، وبعد هذا التنبيه عاد السياق لاستكمال وصايا لقمان يقول الزمخشري (683هـ -1284م): "فإن قلت هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قلت: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك."[90] وقد قيل إن الآيتين نزلتا في الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص ﷺ فهو عندما دخل في الإسلام أرادت أمه أن تثنيه وتعيده إلى الشرك فأقسمت ألا تأكل أو تشرب حتى يرجع عن الإسلام ولكنه ثبت على دينه، وهذا على رأي الكثير من المفسرين منهم: الزجاج(311هـ -923م)[91]، والزمخشري(683هـ -1284م)[92]، وابن الجوزي(597هـ - 1201م)،[93]

وخالفهم ابن عاشور إذ قال: "لا يحسن ما ذهب إليه جمع من المفسرين، أن هذه الآية نزلت في قضية إسلام سعد بن أبي وقاص وامتعاض أمه؛

لعدم مناسبة السياق؛ ولأنه قد تقدم أن نظير هذه الآية في سورة العنكبوت نزل في ذلك، وأنها المناسبة لسبب النزول فإنها أُخليت عن الأوصاف التي فيها ترقيق على الأم، بخلاف هذه، ولا وجه لنزول آيتين في غرض واحد ووقت مختلف"(94) ويمكن القول إن الآيتين توجيه عام لكل ولد مؤمن بالله تعالى بأن يرعى حق والديه ويبرهما في الأمور الدنيوية، ولكن لا يتهاون في عقيدته، فلا يتبع فيها إلا سبيل المؤمنين.

لقد استُهِلَت الآيتان بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ وهذه العبارة توحي بالعديد من المعاني العميقة الدقيقة، وذلك من جوانب عدة، منها: المعنى المعجمي لـ"وصَّى" وتشديد عين الفعل فيه، واستعمال صيغة الماضي، وإسناده إلى ضمير "نا" الدال على التعظيم، وإيثار لفظ "والديه" الدال على الولادة، على لفظ أبويه. إن المعنى المعجمي لـ"وصَّى" يؤكد قدم وصية الله بالوالدين وتتابعها وأهميتها، فقد ورد في معجم مقاييس اللغة: "وَصَى: الواو والصاد والحرف المعتل: أصل يدل على وصل شيء بشيء... والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يُوصى أي يوصل"(95) فكل إنسان لا يخلو من أن يكون ولدًا لوالدين، وهو قد يكون والدًا، وهذا يعطي الوصية تتابعًا عبر الأجيال، وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد أن الرسالات السابقة قد دعت إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(96) فالإنسان منذ القدم موصَّى بوالديه، وعليه ألا يحيد عن هذه الوصية، وقد جاء في معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني(503هـ - 1109م) في معنى "وَصَّى": "التقدم إلى الغير بما يُعمل به مقترنًا بوعظ" وبناءً على هذا المعنى نجد تساوقًا بين الطلب والوعظ، وكأنها طلب على صورة الوعظ والإرشاد، وقد اتضح سابقًا أن الوعظ فيه تحريك للنفوس واستثارة للمشاعر والأحاسيس، ويضاف إلى هذا المعنى توجيه الأمر بالقيام بالفعل، ولو جاء على لفظ "أمرنا" أو "أوجبنا" لكان مقتصرًا على طلب القيام والإلزام دون ما يحمله الوعظ

من استثارة للمشاعر وترقيق للقلب وتنشيط للذهن. وقد جاء وصّى بصيغة الفعل الماضي، لما تحمله هذه الوصية من دلالة على المضي والانقضاء ووجوب التحقق والكينونة وثباتها، فمنذ القدم الإنسان موصّى ببر والديه، وهي من الأمور الثابتة في الرسالات السماوية. وتشديد الصاد في "وَصَّيْنَا" دون "وَصَينا" أو "أَوْصَينَا" يجعل الفعل أدل على مفعوله منهما، كما أنه يوحي بكون أمر هذه الوصية مهمًا وشديدًا؛ كون الزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، ويوحي اتصال الضمير "نا" بالفعل في "وصَّينا" بارتباط هذه الوصية بفاعلها واستعمال هذا الضمير "نا" الدال على التعظيم يشير إلى علو مصدرها وارتفاع منزلة هذه الوصية فالذات العظيمة لا يصدر منها إلا ما هو عظيم الشأن، فهي صادرة من ذات عظيمة وهو الله ﷻ وأن تأتي هذه الوصية بنحو مباشر من الله ﷻ فهذا يمثل تأكيدًا لأهميتها ويشير إلى ضرورة تأديتها على أفضل وجه، كذلك استعمال لفظ: "الإنسان" على إطلاقها دون الأولاد برغم أن قوله "بوالديه" يوحي بأن الموصّى هم الأولاد فقد قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾(97) ولم يقل: وصينا الأولاد بوالديهم؛ وذلك لما يحمله هذا اللفظ من دلالة على الأنس والاستئناس، والاتصال بحاجة بعضهم بعضًا وأنسهم ببعضهم بعضا فالإنسان يأنس بوالديه وهو مصدر أنسهما، وهو يؤنس والديه كما يأنس بأولاده وصحبتهم وهكذا يكون البر ماضيًا متصلا. يقول الأصفهاني(503هـ - 1109م) في ذلك: " الإنسان قيل: سُمي بذلك لأنه خُلِقَ خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سُمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه"(98).

وهنا المقام مقام أمر وحث على بر الوالدين ومصاحبتهما حتى في أشد حالات الجفاء منهما (مجاهدة الابن على الشرك بالله) ورغم ذلك جاء أمر الله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا﴾. والملاحظ هنا أيضًا أن الوصية

جاءت بالوالدين وليس بالأبوين فقد قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ" ولم يقل: بأبويه، برغم أنه قد قال في الآية التي قبلها: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴾ولم يقل لولده، والابن – كما ورد سابقًا– يقتضي أبًا بينما الولد يقتضي والدًا، وفي الحقيقة إن العلاقة هنا أساسها الولادة فالإنسان مطالب برعاية وبر من أنجباه، انطلاقًا من هذه العلاقة فهما أساس وجوده وإن لم يكونا مربيين مهتمين بصلاحه ورشاده، ويجب عليه في بره بهما ألا يكون هذا البر مشروطًا بالتربية والاهتمام، فلا يبرهما في حال لم يؤديا حق تربيته ورعايته، أضف إلى ذلك أن لفظ "والديه" فيه تذكير بمشقة ولادته ومجيئه إلى الحياة. ورغم أن الأم داخلة ضمن الوالدين إلا إنه خصها بالذكر في قوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ﴾ وذلك لما تتحمله من مشاق ومتاعب في سبيل وجود هذا الولد، فالأب يقاسي ويكابد العناء لأجله لكن للأم ألم الحمل ومشقته، وما يتبع ذلك من آلام الولادة، وتعب الرضاعة والصبر عليها، وما تلاقيه من عنت الفطام وشدته، وكأن هذه الآية تصور آلام الأم: حمل يتبعه ولاده وفطام وما يستلزمه من حدوث الرضاعة، وتضعها أمامه، في حين إنه كان في كل هذه المراحل لا يذكر ولا يعي فضل أمه عليه بسبب صغره. وليصور شدة ما تلاقيه الأم من كدر ومشقة في سبيل وجود هذا الابن استعمل "وهنا" والوهن هو شدة الضعف ومنتهاه، ومن الناحية الصوتية اجتمعت في هذه الكلمة الواو والهاء والنون وفي نطقها لها لا تظهر أي شدة ولا يُحتاج إلى طاقة وبذل جهد في ذلك وهذا بخلاف كلمة "ضعف". وقد "انتصب (وهنًا) على الحال من أمه، مبالغة في ضعفها حتى كأنه نَفْسُ الوهن، أي واهنة في حمله"(99) فالمرأة في الأصل ضعيفة وهي تزداد ضعفًا بالحمل والولادة، أو إن الحمل يضعفها ويجعلها في أشد حالات الضعف.

إن لذكر الحمل هنا لطائف، منها: يرقق قلب الولد لوالديه ويحننه لهما فهما أصل وجوده وهذا الوجود لم يكن هينًا، كما أن ذكر الحمل يتناسب

مع لفظ "والديه" لما فيه من الدلالة على الولادة. وقد صور قوله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾(100) مكابدة أخرى تعانيها الأم وهي الفصال وهو "التفريق بين الصبي والرضاع"(101) وفي قوله ﷻ: ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ تحديد مدة الإرضاع، ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ما الغرض من ذكر مدة الإرضاع هنا؟ وهل لذلك علاقة بسياق ذكر البر بالوالدين؟ في الحقيقة إنه إذا كان ذكر الحمل فيه تذكير للولد بما تعانيه أمه في سبيل وجوده في الحياة وذكر الفصال إشارة إلى معاناتها ومشقتها في فصاله، مع إشارة إلى إرضاعها له، فإن تحديده في عامين إشارة كذلك إلى مكوثها في إرضاعه مدة غير يسيرة بما فيها من مشقة وتعب شديدين، فهو لا يولد فيفطم مباشرة، ولا يتم الفطام في عشية أو ضحاها. يقول ابن عاشور: "ذُكِر الفصام في معرض تعليل أحقية الأم بالبر؛ لأنه يستلزم الإرضاع من قبل الفصال، وللإشارة إلى ما تتحمله الأم من كدر الشفقة على الرضيع حين فصاله، وما تشاهده من حزنه وألمه في مبدأ فطامه."(102) ومن جهة أخرى يمثل قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ اعتراض بين المفسَّر: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ والمفسِّر: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ذلك أنه "لما وصَّى بالوالدين: ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة إيجابًا للتوصية بالوالدة خصوصًا، وتذكيرًا بحقها العظيم"(103) ولابن عاشور قوله: "وجملة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ في موضع التعليل للوصاية بالوالدين قصدًا لتأكيد تلك الوصاية لأن تعليل الحكم يفيد تأكيدًا، ولأن في مضمون هذه الجملة ما يثير الباعث في نفس الولد على أن يبرَّ بأمه ويستتبع البر بأبيه"(104). إن فضل الوالدين على الولد عظيم وهما في حد ذاتهما نعمة من الله فهو موجدهما ومسخرهما لخدمة أولادهما في مراحل ضعفهم وحاجتهم، فشكره مقدم على شكرهما. إن التقديم والتأخير في قوله: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ قد جاء لتأكيد اختصاص المصير بالله ﷻ مع ما يحمله لفظ "المصير" من دلالة على الجزاء والحساب، وذكر ذلك في معرض ذكر الوصية

والشكر ينبه المخاطَب بضرورة الالتزام بهما لأنه سيكون هناك مصير وحساب.

إن لقمان قد ابتدأ وعظه بالنهي عن الشرك، ولكن توجد صورة أخرى للوالدين وهي صورة من يصد ابنه عن الإيمان ويعمل جاهدًا أن يجعله يعيش في ظلمات الشرك، وهذا الصد عن سبيل الله من أقوى أنواع الصد عن التوحيد فما من ولداه وعاش معهما بداية حياته وترعرع في أحضانهما وهو مأمور ببرهما، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يطيعهما في ذلك، فهنا يجب عليه أن يصبر على صدهما ويثبت على التوحيد؛ ولذلك نجد التعبير بـ﴿جَاهَدَاكَ﴾ يصور بدقة شدة ما يبذلانه في الصد عن سبيل الله تعالى، فالمجاهدة مفاعلة وهو يشير إلى بذل مزيد من الجهد و"شدة السعي والإلحاح"(105). وفي "جَاهَدَاكَ" جاء ضمير الخطاب "ك" العائد على المفعول به مباشرة بعد ضمير الفاعل "الألف" ليصور شدة المجاهدة من الوالدين، وشدة الاصطدام، والعنت الذي يواجهه الولد منهما. وقد جاء الحرف (على) دالاً مؤكدًا على هذه الشدة ومضيئًا جانبًا من جوانبها فقد قال ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ﴾ ولم يقل (لتشرك) فـ(على) هنا أدل على تمكن المجاهدة وقوتها يقول ابن عاشور: "فأما حرف (على) فهو أدل على تمكن المجاهدة؛ أي مجاهدة قوية للإشراك"(106) وهنا حث على الثبات الراسخ على التوحيد في مقابل شدة الإلحاح على الدعوة إلى الشرك. ويشير قوله تعالى: "مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" إلى أن أي عبادة تكون لغير الله ﷻ لا تكون مبنية على علم ويقين، إنما مجرد ظنون وأوهام وهي محض افتراء ولا أساس لها من الصحة، فلو سألنا أي عابد لغير الله ﷻ عن سبب عبادته وإشراكه فإننا لن نجد إلا تبريرات واهية تنم عن جهل وضلال.

إن الوالدين قد يبذلان جهدًا كبيرًا في إضلال ولدهما، وبرغم ذلك هو مأمور ببرهما والإحسان إليهما لأنهما ولداه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق قاعدة ثابتة لا استثناء فيها، ولو كان هذا المخلوق أحق

الناس بحسن الصحبة فالعقيدة لا هوادة فيها وهي مستثناة من وجوه الطاعة والبر، بل هناك من هو أحق بالاتباع منهما بينه قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾. والملاحظ أنه جاء بأسلوب النهي ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولم يأت بأسلوب الأمر "اعصهما" ذلك أن المقام مقام حث على البر بالوالدين، فجيء بلفظ الطاعة منهيًا عنه ولم يأت بلفظ دال على المعصية مما يجعل السياق منسجمًا متناسقًا. ورغم صدهما عن سبيل الله وتجاوزهما للحد إلا إن الخطاب موجه للابن بحسن صحبتهما ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، لأن برهما قائم على أساس كونهما والدين للولد بقطع النظر عن معتقدهما الديني، وهذا يؤكد تسامح الدين الإسلامي، يقول سيد قطب: "الاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة"(107) إن المصاحبة تقتضي الترافق والتلازم بين الصاحبين، فأقول: هذا صاحبي، في حال كان بيني وبينه ترافق وتلازم وانسجام يقول ابن فارس (395هـ -1005م): "(صحب) الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارَنَةِ شيء ومقارَبَتِه"(108) وللأصفهاني قوله: "الصاحب: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن -وهو الأصل والأكثر- أو بالعناية والهمّة"(109) وخص العسكري (395هـ -1005م) الصحبة في الآدميين حيث قال: "الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر، ولهذا يُستعمل في الآدميين خاصة."(110) والذي يبدو أن العسكري (395هـ -1005م) قد قال بهذا الاختصاص؛ لأنه ينظر إلى تبادل المنفعة بين الصاحبين وهذا إنما يكون بين الآدميين دون غيرهم من المخلوقات.

إن التساؤل المطروح هنا: ما المقصود بقوله تعالى: "فِي الدُّنْيَا"؟ ولماذا حُدِّد بهذه المدة الزمنية؟ وما فائدة ذكر ذلك في هذا المقام؟ من المفسرين من رأى أن المراد مدة بقاء الابن في الدنيا ومنهم من رأى أن المقصود مدة بقاء الوالدين في الدنيا وهو -والله أعلم- يحتمل الأمرين فإن كان

والداه مؤمنين فهو مطالب ببرهما ما أحياه الله سواء أكان والداه على قيد الحياة أم لا، وذلك بالدعاء لهما أو التصدق عنهما أو الحج... إلخ من وجوه البر، أما إن كانا كافرين أو مشركين فهو يبرهما مدة بقائهما في الدنيا فإن غادرا الحياة توقف برهما وانقطع. وأميل إلى هذا المعنى - وإن كنت لا أستبعد المعنى الأول- لأن المقام هنا مقام ذكر مجاهدة والدين مشركين بالله يسعيان لإبعاد الابن عن التوحيد، وهذا لا يصدر من الوالدين المؤمنين، ونهي الابن وأمره بـ" ولا تطعهما وصاحبهما" إنما هو مختص بحال كون الوالدان مشركين فبر ابنهما بهما مرهون ببقائهما على قيد الحياة فهو بر ومنفعة دنيوية فقط. وقد عرَّف الزجاج (311هـ -923م) "المعروف" بأنه: "ما يستحسن من الأفعال" وجعل ابن فارس(395هـ -1005م) له معنيين إذ قال: "(عَرَفَ) العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة"(111) أما الراغب الأصفهاني(503هـ -1109م)، والسمين الحلبي(657هـ -1258م)، والفيروزآبادي (817هـ -1414م) فقد عدوا المعروف: اسمًا لكل فعل يُعرَف بالعقل أو الشرع حسنه(112) وفي الحقيقة إن المعروف لا يكون إلا أمرًا حسنًا يستحسنه الشرع ويرضاه العقل، كما أن النفس تطمئن وتسكن لما يستحسن من الأفعال فكل هذه المعاني محتملة، وهذا يجعلنا نتأمل وجوه البر بالوالدين فهي كثيرة جدًا ولا نستطيع حصرها بحال من الأحوال؛ ولذلك جاء "معروفًا" نكرة، ليشير إلى الشيوع والعموم والتعدد فلم يقل: وصاحبهما في الدنيا بالمعروف.

إن الإنسان مطالب أن يبر والديه وأن يخفض لهما جناحه لما بينه وبينهما من رابط الولادة والتكوين والأصل والنشأة، ولكن هناك رابطًا أقوى هو "رابط الدين والعقيدة" يصوره قوله ﷻ: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ إن هذا الرابط أقوى من روابط الدم، لذلك فإن الإنسان مطالب بأن يستمسك به حيث يجمعه مع أهل هذا الرابط صفة التعلق بالله والإنابة

إليه، وقد ضرب الصحابة رضوان الله عليهم أروع الأمثلة لقوة هذا الرابط. إن "السبيل هو الطريق سمي بذلك لامتداده"(113) ويُستعمل "الكل ما يتوصَّل به إلى شيء خيرًا كان أو شر"(114) إن العلاقة بالله ﷻ يجب أن تكون متصلة متتابعة والسبيل في الآية الكريمة مخصص بالإنابة إلى الله ﷻ، والإنابة لفظ يوحي بالرجوع والتكرار فيه يقول ابن فارس(395هـ -1005م): "(نَوَبَ) النون والواو والباء كلمة تدل على اعتياد مكان ورجوع إليه" وللأصفهاني قوله: "(النَّوب): رجوع الشيء مرة بعد أخرى... والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل يقول ابن عاشور مفسرًا الإنابة بقوله: "المنيب الملازم للطاعة، ويظهر أن معنى أنابَ صار ذا نوبةٍ أي: ذا رجوع متكرر... فإطلاق المنيب على المطيع استعارة لتعهد الطاعة تعهدًا متكررًا، وجعلت تلك الاستعارة كناية عن مواصلة الطاعة وملازمتها"(115)، وكل هذه المعاني توحي بأن "سبيل الإنابة إلى الله" سبيل متتابع متصل تشعر النفس معه بالانسجام. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ففيه وعد ووعيد وفي ضمائره "تغليب الخطاب على الغيبة لأن الخطاب أهم لأنه أعرف"(116) لذلك تغير منحى الخطاب من خطاب المفرد في "جاهداك"، "تشرك" "لك" "تطعهما" "صاحبهما" "اتبع" إلى الجمع في "مرجعكم" "فأنبئكم" "كنتم" "تعملون"؛ ذلك أن التكليف بالبر إنما هو للولد، ولكن الجزاء يكون عامًا شاملاً له ولوالديه ولمن أناب إلى الله ﷻ، فجاء الجزاء عامًا شاملًا للجميع.

2- الوعظ بأسلوب مؤثر

خاطب لقمان عليه السلام ابنه بأسلوب مؤثر من الناحيتين: النفسية الوجدانية والفكرية الإقناعية، وذلك في خمس آيات اتضح فيها اتباعه تقنيات لغوية عدة بألفاظ دقيقة، وتدرج في ترتيب هذه الوصايا، كل هذا بأسلوب

لطيف رقيق يطرق أبواب النفس ويقنع الفكر. والتقنيات الخطابية التي اتبعها لقمان عليه السلام افتتاحه الخطاب بأسلوب رقيق لطيف يعتمد في الأساس على الترفق والتلطف بابنه، وذلك في قوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (117)، فقد ابتدأه بالنداء، وهو في العرف البلاغي تنبيه المخاطَب وطلب إقباله بحرف نائب مناب أدعو أو أنادي، ولكن ليس هذا كل شيء عن النداء فهو بوجوده في مستهل الخطاب ثم في مفاصله،(118) بالإضافة إلى التركيب اللفظي لهذا النداء من جهة: الصيغة التي جاء بها، والحرف المستعمل فيه، والاسم المنادَى به، وما أُضيف إليه من ياء النسبة، وهو بذلك يقدم للابن شحنة تنبيهية، ويرسم ظلالا من المشاعر والأحاسيس التي تربط بين المنادِي والمنادَى، ويعكس المشاعر الدفاقة من الأب تجاه ابنه، وإخلاصه في توجيه الخطاب، ومدى حرصه على الوصول إلى قلب ابنه وإقناعه بأهمية المنادَى له، ورغبته الشديدة أن يُعنى الابن بالمنادَى له ويجعله نصب عينيه. وقد استعمل في ندائه "يا" بما فيها من مد صوتي، ليشير إلى علو منزلة هذا الابن ومكانته في قلب أبيه، وأن هذه المنزلة حاضرة في خطابه. وناداه بالعلاقة التي تربطه به "بُنَيَّ"، علاقة الأبوة التي تدل على التودد والتلطف والترفق.

كما تشير إلى الهدف من الخطاب وهو التربية والتعهد بالرعاية والصلاح، ومداومة الصحبة، وهذا أنسب من أن يناديه باسمه، أو بلفظ "ولدي" فاسمه لا يحمل معنى من معاني الأبوة، أما "ولد" فكما ورد سابقًا يشير إلى الولادة والوجود ولا يدل على التربية والرعاية. ومن جهة أخرى صَغَّر "ابن" بـ"بُنَيَّ" وهذا التصغير يدل على التلطف والتودد والتحبب إلى الابن وإحاطته بالرعاية والاهتمام يقول ابن عاشور: "التصغير فيه تنزيل المخاطَب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة وهو كذلك يمثل تنبيهًا للابن بأنه مازال صغيرًا وفي حاجة إلى الوعظ من أبيه."(119) وقد أضاف الابن إلى نفسه بياء النسبة، ليثبت له أنه ينطلق في وعظه من نسبته إليه وارتباطه به، فمعلوم أن الإنسان يولي جُل عنايته بصلاح ما يُنسب إليه، وهذا يجعل الابن يثق أشد الوثوق بخطاب أبيه، فيمضي ممتثلا بانشراح صدر وراحة بال.

وبعد أن هيأ لقمان عليه السلام ابنه لتلقي الخطاب بالنداء بـ "يَا بُنَيَّ" من الناحيتين النفسية الوجدانية والفكرية الإقناعية، شرع في الوصية الأولى "لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ"، فنهاه عن الاقتراب من ساحة الشرك والبعد عنها كل البعد، وهذا يمثل أهم شيء في صلاح النفس وهو إصلاح العقيدة وتنقيتها مما قد يشوبها من أدران الشرك. إن إصلاح العقيدة هو أول ما يجب على المربي أن يُعنى به في تربية أبنائه، فإذا فسدت عقيدة المرء فلا خير له في عملٍ أو خلق يتحلى به و "النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يُقدّم لها قبل ذلك تخلِّيتها عن مبادئ الفساد أو الضلال، فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل"(120) وهو بذلك يطهر قلبه ويزكي نيته. ومن الحكمة أن تبدأ الوصايا بالنهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو أساس قبول الأعمال قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(121) ومن ذلك قوله عز وجل:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[122]، فما دامت أعماله كلها لن تقبل، وسيكون مصيره النار بسبب شركه فلا فائدة من حثه على فعل الخير.

وقد اختار في نهيه عن الشرك لفظ الجلالة "الله" الدال على الألوهية لأن المقام مقام إفراد بالألوهية والعبادة، وهو لفظ مختص به وحده، مثلما هو الحال مع "الرحمن"[123]. وفي الحقيقة إن نهيه ابنه عن الشرك بالله في ابتداء موعظته حمل بعضهم على القول إن ابنه كان مشركًا فما زال يعظه حتى وحد الله تعالى، وهذا محتمل، ولكن من جهة أخرى من الممكن أن يعظ الأب ابنه بنهيه عن الشرك بالله وإن كان موحدًا، ليثبته على الطريق الصواب، وليضمن عدم حياده عنه. إن من تقنيات الإقناع والتأثير في المخاطَب أن يُذكر له عقب نهيه عن القيام بفعل ما، تعليل سبب هذا النهي، فينتهي وهو على اقتناع بأهمية الابتعاد عن ساحة المنهي عنه، ويمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، هذا الدور على أكمل وجه، فبعد أن نهاه عن الشرك بالله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ جاء قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ معللا سبب النهي، فلا يشرك بالله لأن الشرك ظلم عظيم، فتقبح صورته في نفسه وتنفر منه وتتحرز من الوقوع فيه بأي وضع من الأوضاع وعلى أي شكل من الأشكال. إن تعليل المنهي عنه -في حد ذاته- يقوي النهي ويزيده تأكيدًا وتنفيرًا من مغبة القيام به، وعندما ننهى شخصًا عن القيام بفعل ما ونكتفي بذلك، لا يكون بقوّة أن ننهاه عن القيام بالفعل ونردف ذلك بتعليل سبب النهي، فهذا التعليل يقنعه بمخاطر المنهي عنه فيبتعد عنه باقتناع.

والملاحظ في الآية الكريمة أن التعليل -الذي يمثل تقوية للنهي- جاء مؤكدًا بعدة مؤكدات، لتصوير حقيقة الشرك وأن كونه ظلمًا صفة مستقرة فيه لا تتغير عنه ولا تتبدل. ومن هذه المؤكدات: "إن" التي هي أداة من أدوات التوكيد في اللغة العربية، واسمية الجملة الدالة على الثبات والاستقرار والاستمرار، بالإضافة إلى مجيء خبر هذه الجملة

مفردًا، وهذا أيضًا يؤكد ثبات كونه ظلمًا عظيمًا، أضف إلى ذلك "اللام في "الظلم"، ووصفه بأنه عظيم، كل ذلك يتعاضد في تقبيح صورة الشرك وتهويله، فلا يجرؤ من مجرد التفكير فيه، وفي هذا تنفير شديد من الشرك بالله ﷻ، وتهويل لشأنه مما يجعل الابن لا يدانيه ولا يقترب من ساحته، فتنفر نفسه منه وتتحرز من الوقوع فيه بأي وضع من الأوضاع وعلى أي شكل من الأشكال وهو تنفير فيه ما فيه من الرقة والتلطف المتمثل بالنداء بـ "يَا بُنَيَّ"، الذي يطرق قلب الابن ونفسه ويملك خلجات قلبه، بالإضافة إلى التأثير الإقناعي الذي يجعل الابن واثقًا متأكدًا من خطر الشرك بالله.

إنه أسلوب حكيم في التربية والدعوة إلى الله تعالى يراعي النفس والشعور كما يراعي العقل والإدراك. والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا في هذا المقام: لماذا وصف الشرك بالظلم؟ ومن الظالم ومن المظلوم؟ إن الظلم لغة هو: "وضع الشيء في غير موضعه... وأصل الظلم الجَوْرُ ومجاوزة الحد... والظلم: المَيْلُ عن القصدِ"(124)والإنسان بشركه بالله -عزوجل- إنما ينسب الخلق لغير خالقه ويوجه العبادة والألوهية في غير موضعها الصحيح، وهو بذلك يقلب حقائق الوجود(125)، وهو جائر في ذلك متجاوز لحده، فما خلقه الله إلا لعبادته قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(126)؛ فقد خلقهم ليفردوه بالعبادة لا أن يشركوا معه أحدًا من خلقه. وقد أكد الله ﷻ في القرآن بأنه لا يظلم ولا يُظلم فمن ذلك قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (127) وكذلك قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(128). فلا يتوهم متوهم أنهم بشركهم يظلمون الله ﷻ. والمشرك بشركه بالله ﷻ يظلم نفسه بأن يضعها "في حضيض العبودية لأخس الجمادات"(129)، "فبعد أن كرمه الله تعالى بعبادته لخالق الكون وموجده يحيد بالعبادة إلى مخلوق لا يملك له ضرًا ولا نفعًا، فكيف يترك الرقي في العبادة ويتجه إلى حضيض العبودية؟"(130) وهو يظلم نفسه، وذلك بأن يوردها موارد

الهلاك والعذاب الشديد الدائم يوم القيامة فتكون عاقبته الخلود في نار جهنم.

لقد استُئنف مشهد خطاب لقمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(131) وذلك بعد اعتراضه بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ففي هذه الآية أكد له قدرة الله المطلقة وعلمه الدقيق والمحيط وعدله في حكمه فهو يقضي بين الخلائق فلا يفوته شيء ولا يخفى عليه ما عملوه مهما خفي هذا العمل أو دقَّ، وقد نحى في ذلك ألطف عبارة واستعمل لذلك أنسب الأساليب، فقد ناداه وضرب له مثلًا وأكد له المعنى بأدوات التوكيد، فنجده قد استهل المثل بالنداء برغم أنه قد كان في حال خطاب معه قبل ضرب المثل فقد كان من المتوقع أن يستغني عن النداء لأنه في العرف البلاغي إنما هو تنبيه للمخاطب وطلب لإقباله و بحكم أن ضرب هذا المثل لم يرد ابتداء وإنما سبقه خطاب سابق ونداء فقد كان من المتوقع الاكتفاء باستعماله في مستهل الخطاب إلا أن لقمان عليه السلام لم يكتفِ بذلك إنما كرر نداءه لابنه عندما أراد أن يضرب له المثل ولهذا التكرير أثره في نفس المخاطَب فهو يعمل على زيادة تنشيط ذهنه لوعي الخطاب مع ما يوحيه من إشعار بأهمية المنادَى له وتأكيده لذلك، واستعماله لـ "يا" بما تحمله من مد صوتي يوحي بمكانة الابن، بالإضافة إلى كلمة "ابن" وما تشير إليه من تربية ورعاية وإحاطة بالعطف والاهتمام، أضف إلى ذلك التودد والتحبب والتلطف والشفقة المستفادة من إيثار "بُنَيّ" على "ابني"، والتذكير بالعلاقة التي تربطهما، كل هذه الأمور تجعل الابن في حال من اليقظة والاهتمام والإصغاء، وتهيئه لاستيعاب المثل، وهذا الاستيعاب سيترتب عليه سرعة التنفيذ، والاقتناع بمراقبة الله عز وجل وقدرته وسيتأكد لديه أن من سيكون مرجعنا إليه ومن سينبئنا يوم

القيامة بما عملنا في حياتنا، علمه مطلق يتسم بالدقة والإحاطة والشمول.

بعد النداء جاء قوله: (إنها) وهو مكون من "إنَّ" الدالة على التوكيد، والضمير "ها" في "إنها" المسمى بـــ"ضمير القصة" وهو يُستعمل لجذب الانتباه والتأكيد على أهمية ما يُقص وهو يفيدُ الاهتمام بإقبال المخاطَب على ما سيرد بعده من خبرٍ، بالإضافة إلى اسمية الجملة الداخل عليها وهذا يؤكد المعنى ويصوره على أنه من الحقائق الثابتة التي لا مراء فيها. إن هذه المؤكدات في مستهل ضرب المثل تتعاضد لإثبات المعنى والتأكيد على أنه من الحقائق الثابتة مما يهيئ المخاطب لتلقي المثل ويجعله في حال من اليقظة والانتباه، والتشويق للخبر، واليقين بصدق ما سيُحكى ويُقص عليه. يقول ابن عاشور: "فاجتمع في هذه الجملة ثلاثة مؤكدات: النداء، وإن، وضمير القصة؛ لعظم خطر ما بعده المفيد تقرير وصفه تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات من الكائنات ووصفه بالقدرة المحيطة بجميع الكائنات"(132)، ولكن لماذا اختار حبة الخردل ليجعلها عنصرًا من عناصر هذا المثل الذي ضربه لابنه؟ وما دلالة كونها "فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ"؟ وهل لضرب هذا المثل ارتباط بالآية المعترضة قبله؟ أو بالوصية الأولى التي سبقته الناهية عن الشرك في قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ ؟ وكذلك بالوصايا التي تلته والتي يمثلها قوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ...﴾(133)، وما أثر هذا المثل في الخطاب؟

إن عناصر المثل الذي ضربه لقمان عليه السلام لابنه هي: حبة الخردل، والصخرة، والسماوات، والأرض، فالخردل نبات يتميز بصفتين صغر الحجم والخفة، فإذا ما وضعنا هذه الحبة في يدنا فلا نكاد نشعر بوزنها لخفتها، أما الصخرة فهي رمز الصلابة والتمنع وهنا يجتمع أمران: شيء دقيق صغير الجرم، مختف في مكان لا تراه العين ولا تدركه الحواس، وهذا المكان متمنع بعيد المنال، بسبب شدة صلابة

الصخرة وقسوتها، فالذي سيأتي بهذا الشيء لا يخفى عليه الدقيق، ولا يعجزه الاستكنان ولو جمع مع ذلك بُعد المنال فكان نطاق الوجود هو البعد العلوي (السماوات) أو البعد السفلي (الأرض) مع ظلمة وعدم ظهور واتساع في مجال البحث، إنه تصوير دقيق لقدرة مطلقة وعلم محيط.

وأمام الصورة التي يرسمها هذا المثل، المكونة من عناصر دنيوية: حبة خردل، وصخرة، والسماوات، والأرض، يُطلق العنان للعقل ليرسم مشهدًا موازيًا له متعلقًا بيوم القيامة، فلو استبدلنا حبة الخردل بالأعمال التي لا يُلقي لها المرء بالًا، التي يعتقد أنها أمور صغيرة لا وزن لها في ميزان الحسنات أو السيئات فسيدرك أن هذه الأمور الصغيرة ستكون حاضرة في الميزان سلبًا إن كانت سيئة وإيجابًا إن كانت حسنة، فالأعمال مهما دقت أو صغرت واستحقرت فهي لن تفوت الله ولن تخفى عليه وسيحاسب صاحبها. ولو استبدل الاستكنان في أشد رموز الكون قوة وقسوة وصلابة، والبعد بأشد المساحات اتساعًا "السماوات والأرض" بالاختباء عن الرقباء فإنه سيدرك أن هذه الأعمال مهما أخفاها عن علم الخلق فإن الله ﷻ لن تخفى عليه.

ويأتي الجزء الأخير من المشهد وهو حضور هذه الأعمال بما توحيه قوة الاستحضار في قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ وما يصوره المركب الشرطي "إنها إن تك" "يأت بها" من سرعة في القيام بالفعل، وسهولة ويسر في ذلك، فيدرك حينها أن هذه الأعمال سيُظهرها الله يوم القيامة وتكون حاضرة في الموازين، فما يلبث المخاطَب إلا أن يقتنع وتعظم في نفسه هذه القدرة فيستحضر اليوم الآخر وأعماله التي كان يراها صغيرة حقيرة فيعتقد أنها قد لا تؤثر في ميزان حسناته أو سيئاته أو التي أخفاها بإحكام واطمأن أنه لم يره أحد، فإذا بها حاضرة لها مكان ووجود في الميزان، وهنا يدرك أن عليه الحرص أن تكون أعماله كلها صالحة فالقادر على الدقيق منها قادر على الظاهر والعظيم.

والملاحظ في قوله ﷻ: "﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ استعمل "يَأْتِ بِهَا" دون "يجيء بها" أو "يستحضرها" أو "يعلمها"؛ لأن "الإتيان" يحمل معنى الاستحضار بالإضافة إلى السهولة واليسر في ذلك، أما "يجيء بها" فقد يحتمل بذل مجهود في ذلك، في حين أن الاستحضار لا يوحي بالسهولة واليسر كما هو الحال مع "يأت"، بالإضافة إلى قوّة التمكن من الشيء المأتي به، فمن يستطيع الإتيان بالشيء بسهولة ويسر فهو متمكن منه أشد تمكن، وهذا ما تؤكده الباء في "بِهَا"، وكذلك المعنى المعجمي لـ(يأت). ومن جهة أخرى فإن "يأت" أشد في إثبات قدرته وإحاطته من "يعلم" فالذي يأتي بالشيء لا بد وأنه يعلمه، وبذلك جمع "يأت" الاستحضار والتمكن والعلم في كلمة واحدة.

إن موقع هذا المثل من جهة وروده عقب الآيتين المعترضتين يؤكد أن لضرب المثل في هذه الآية مناسبته مع قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالذي يراقب هذه الأعمال ويجازي عليها والذي سيكون مرجعنا إليه والذي سينبئنا بأعمالنا متصف بأنه لطيف خبير، لا يخفى عليه من أعمالنا شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فضرب هذا المثل عقب ذكر اختصاص الله ﷻ بالمرجع والحساب، يربي لدى المخاطَب بالقرآن الخشية من الله والحرص على أن تكون الأعمال صالحة. أما ترتيب المثل ضمن الوصايا، فقد جاء بعد النهي عن الشرك بالله، وقبل الأوامر والنواهي؛ ليؤكد للمخاطَب قدرة الله الذي نهاه عن الشرك به في الوصية الأولى؛ مما يجعله يدرك قدرة الله ولا يقترب من ساحة الشرك، وقد ضرب له هذا المثل قبل أن يأمر ابنه أو ينهاه ليؤكد له ابتداءً بأن الله لن يخفى عليه شيء مما يحثه على الإخلاص في تأدية الأعمال التي حثه على القيام بها على أكمل وجه، والبعد عما نهاه عنه.

إن تكرار لفظ الجلالة "الله" في قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" إذ لم يقل: "يأت بها الله إنه لطيف خبير"؛ يضفي على التعبير هيبة وجلالاً بما يوحيه من معنى الألوهية، وفيه إلماح إلى صفات الإله الحق الذي يجب أن يكون لطيفًا خبيرًا. وفي هذا المثل ربط لقمان بين شيء محسوس مدرك "حبة الخردل الصغيرة الخفيفة المستكنة في صخرة أو البعيدة في البعدين العلوي والسفلي، مع إدراك لمدى قوة الاستكنان ومدى اتساع السماوات والأرض، لإثبات قدرة الله على الاستحضار والإحاطة في العلم، فيجعله يمسك بطرف من هذه المعرفة فيتغلل في نفسه الخوف من الله ومراقبته في كل أعماله فينشط للطاعات ويبتعد عن المعاصي، وبعد هذا المثل يكون مهيأ لما سيأتي بعده من أوامر ونواهٍ. وأخيرًا يمكن القول إن لقمان قد ضرب لابنه هذا المثل ليثبت له قدرة الله، وأنه في علمه لا تخفى عليه حبة الخردل الصغيرة المستكنة في داخل صخرة وهو في قدرته لا يعجزه أن يأتي بها وإن كانت في مكان بعيد متسع الحدود والأرجاء كالسماوات والأرض فذكر السماوات والأرض يوحي بأنه لا يعجزه شيء فيهما.

وهذه حالة من الممكن تخيلها تقابلها حالة أخرى غائبة وهي العلم بدقائق الأعمال واستحضارها يوم القيامة على اتساع الزمان وكثرة المحاسبين، فمهما دق شيء واستكن ومهما بعد وطال أمده فإن الله لطيف خبير. إن ضرب المثل أسلوب من أساليب الإقناع والتأثير النفسي؛ فهو يملك العقل والوجدان معًا فتتغلغل حقيقة علم الله وقدرته المطلقة، وتُعدّ الأمثال من أساليب التعليم والتوجيه التي تجعل المعنى يرسخ في الذهن ويأخذ بشغاف القلب ويقرب المعنى ويولجه في الذهن. فهو لم يأت بالمعنى مجردًا وإنما جاء به في صورة محسوسة منتزعة من الواقع والكون المحيط، فيدرك أن الله لا استحالة عليه فيما صغر أو كبر فالقادر على استحضار الدقيق المختفي قادر على استحضار الكبير البارز، وهنا يرسخ المعنى في ذهنه فلا يفارقه.

إن لقمان عليه السلام يكرر النداء ونجد هذا التكرار في مفاصل مهمة من وعظه ابنه فقد ناداه ابتداءً قبيل البدء بالوعظ والنهي عن الشرك بالله تعالى، ثم ناداه مرة أخرى عندما أراد أن يضرب له المثل ليثبت له قدرة المعبود الحق الذي نهاه أن يشرك به شيئًا والذي إليه المرجع والذي سيحكم على الأعمال. وناداه مرة ثالثة قبل التوجه إليه بالأوامر والنواهي. ولهذا التكرير فوائده في كل موضع احتله في الخطاب فهو ينشط المخاطّب ويبعد عن نفسه الملل بسبب طول الخطاب، ويؤكد له في كل مرة يتكرر فيها أهمية المنادَى له وأن هذا المنادى له مختلف في كل مرة يتكرر فيها النداء برغم ثبات المنادِي والمنادَى له، وهو يصور للمخاطَب اهتمام المخاطِب الشديد وعنايته به إلى جانب ما يحمله من تلطف وترفق وتودد... إلخ. وكل نداء من هذه النداءات جاء بأسلوب لطيف يوحي بالشفقة والتودد والتحبب وعلو المنزلة.

لقد رتب لقمان عليه السلام أوامره ونواهيه ترتيبًا دقيقًا، فبدأ بإقامة الصلاة "وإقامة الصلاة إدامتها والمحافظة على أدائها في وقتها"(134). وهي تمثل عمود الدين، وتحتل الركن الثاني من أركان الإسلام، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، كما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وهي أول ما يجب على المسلم أن يتعلمه من أمور دينه، وتجعل القلب آمنًا مطمئنًا خاشعًا. إن حكاية أمر لقمان لابنه بإقامة الصلاة يحمل رسالة لمتلقي القرآن بأن الصلاة ركن أساس في عقيدة المؤمن أمر بها المؤمنون بالله قبل الإسلام، وهي من أسس التربية القويمة للأبناء، لما لها من أثر عظيم في النشء. أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما علاقة الإنسان بمجتمعه فلا يكفي أن يكون صالحًا في نفسه وإنما يتوجب عليه أن يكون أيضًا مصلحًا لمجتمعه، وبذلك يتجاوز لقمان بابنه من صلاح الذات إلى إصلاح المجتمع، وكأنه يجعل من ابنه بذرة خير تنمو وتزهر فيفوح شذاها للجميع.

وقدم إقامة الصلاة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الصلاة تطهر النفس وتسمو بصاحبها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطهير للمجتمع فالأولى أن يقدم ما يطهر به نفسه ثم ما يطهر به مجتمعه. أما قوله: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ"(135) فيوجد ثلاثة احتمالات للمراد منه: فمن المحتمل الصبر على ما يصيبه في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الصبر على ما يصيبه في الحياة، ومن الممكن أن يقصد به الصبر على تأدية جميع ما ذكر من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعلى الاعتبار الأول فإن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذىً من بعض، فإذا لم يصبر على ما يصيبه من جراء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شك أن يتركهما"(136) فالصبر سلاح التحمل والمداومة لاستكمال طريق الإصلاح. وعلى الاعتبار الثاني أن الحياة حفت بالمكاره والمصاعب والكدر فلا بد من مواجهتها بالصبر وليس كل إنسان قادرًا على تحمل كدر الحياة ومشاقها؛ لذا نجد في المجتمعات التي لا تؤمن بقضاء الله وقدره يكثر فيها الانتحار لدرجة أنه قد يحدث لأسباب تافهة جدًا ومنهم من يحاول الهروب من واقعه بتناول المسكرات وهناك من يعيش حياته كئيبًا حزينًا... إلخ، وكل هذا ينبئ عن عدم القدرة على الصبر وانعدام الإيمان بالله الذي يجري الأقدار كيفما يشاء.

إن صبر الإنسان على ما يصيبه يقوي من عزيمته، والله مدح الصابرين في القرآن وبشرهم. وبناء على هذا التأويل فإن لقمان انتقل من علاقة الإنسان بربه في الصلاة إلى علاقته بمجتمعه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى علاقته بنفسه وما يحدث له في رحلة حياته. وعلى الاعتبار الثالث، يمكن القول إن الصلاة لها أركان وشروط وهي تؤدى خمس مرات في اليوم، وكذلك الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يحتاج إلى اختيار الزمان والمكان المناسبين لذلك،

والأساليب الفعَّالة والطريقة المثلى ليضمن تحقيق مقاصده والناس مختلفون في مداركهم ونفسياتهم، فلا بد من دعوتهم بما يتناسب معهم، فكأنه أمره بصلاح نفسه وتطهيرها بالصلاة إلى صلاح مجتمعه وتطهيره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تسليحه بالصبر والعزيمة في أداء جميع ما ذُكِر.

وتأتي الإشارة بـ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، فيُحتمل أن يكون المشار إليه باسم الإشارة "ذلك"، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبار أنهما أقرب مذكور، ومن المحتمل أيضًا أن يكون عائدًا على جميع ما ذُكِرَ سباقًا من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقصود بعزم الأمور؛ "أي قطعه قطع إيجاب وإلزام... وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعها ومفروضها"(137) أو تعبير آخر الأمور التي عزمها الله ﷻ وأكدها لعباده في رسالاته، "ويجوز أن يكون مصدرًا في معنى الفاعل أصله من عازمات الأمور"(138) فهي تحتاج إلى عزيمة وإصرار في تأديتها، وكلا المعنيين محتملين. وبعد ذلك انتقل لقمان عليه السلام في وعظه إلى آداب تعامله مع الناس في حركة وجهه ومشيته وصوته وقد نوَّع خطابه فاستعمل الأمر والنهي والتعليل، والتوكيد.

وقد نهاه عن أمرين هما: التصعُّر هو: "الميل في الخدِّ خاصة"(139) أو هو: "ميلٌ في العنق"(140) على اعتبار أن الصَعَر داء يصيب الإبل يلوي عنقها، وليس المقصود هنا النهي عن لي العنق أو الخد وإنما النهي عن التكبر فالمتكبر يشيح بوجهه عن الناس احتقارًا لهم وافتخارًا عليهم. وهذه صورة منفرة للإنسان المتعالي، فهوه ينهاه عن التصعّر مع رسم صورة منفرة لمن يتخلق به، وقد عبّر بالتصعّر دون أن يقول له لا تشح بوجهك عن الناس، لأن هذا اللفظ يوحي بالداء الذي تصاب به الإبل مما يجعل نفس الابن تعافه. ومن المعلوم أن الوجه هو أول ما يواجه الإنسان به الناس فمن يلقاهم بوجه طلق بشوش ليس مثل

من يلقاهم بوجه عبوس وتقطيب وإشاحة. وقد جاء "تصعِّر" على وزن "تفعِّل" للدلالة على التكلف والتصنع والتعمد؛ "لأنه يفعله ولا داء به"(141)، كما يدل "على التكثير"(142) والمبالغة في ذلك. ونهاه كذلك عن المشي مرحًا، والمرح "فرط النشاط من فرحٍ وازدهاءٍ ويظهر ذلك في المشي تبخترًا واختيالاً"(143) وهي "حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق وهي تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفس في مشية الخيلاء"(144)، إن في قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ لقد استعمل المصدر "مَرَحًا" دون اسم الفاعل "مَرِحًا" ومعلوم أن المصدر أوكد من اسم الفاعل من جهة دلالته على الحدث دون تقييد بزمن معين، أضف إلى ذلك أن مجيء هذا المصدر حالًا "يراد منه المبالغة في الاتصاف" (145).

والملاحظ استعمال حرف الجر "في" حيث قال: "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ" وهذا ما نجده كذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (146) ولكن في سورة الفرقان استُعمل حرف الجر "على" قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (147) ومع "السير" جاء بحرف الجر "في" قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (148) فلماذا عبَّر في موضع بـ"في" وفي موضع آخر بـ"على"؟ وما الفرق بين "المشي" و"السير"؟

إن الحديث في آيتي لقمان والإسراء عن نوع معين من المشي وهو المشي مرحًا ومن تكون هذه مشيته فإنه يضرب الأرض بشدة وكأنه يريد أن يخرقها بقدميه، يقول ابن عاشور: "المشي مرحًا أن يكون في المشي شدة وطء على الأرض وتطاول في بدن الماشي"(149) لذلك عقب النهي عن هذه المشية في سورة الإسراء بنفي أن يكون بمقدوره أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولا. وبناء على ذلك فالأنسب في هذا المقام استعمال "في" لدلالته على الظرفية، أما آية الفرقان،

فهي مدح لعباد الرحمن بمشيتهم حيث يمشون بسكينة ووقار وترفق وخفة وكأنهم يعلون الأرض، فاستعمل "على" وهي تدل على الاستعلاء حقيقة أو مجازًا. أما استعمال "في" مع السير في آية آل عمران فراجع إلى المعنى اللغوي للسير يقول ابن فارس(395هـ - 1005م): "السين والياء والراء أصل يدل على مضيٍ وجريان"(150) وبناء على ذلك فالأنسب استعمال "في" لدلالتها على الظرفية لأن الجريان إنما يكون في مسار، أضف إلى ذلك أن السير فيه امتداد في الجهة يقول ابن منظور(711هـ - 1311م): "يقال: سار القوم يسيرون سيرًا إذا امتد بهم السير في جهة توجهوا لها."(151) والتساؤل الذي يتبادر إلى الذهن لماذا نهى لقمان عليه السلام ابنه عن هاتين الصفتين في تعامله مع الناس؟ إن هاتين الصفتين تؤديان إلى ضعف المجتمع وتفككه والتباعد بين أفراده وإذا ما فقد المجتمع تلاحمه وترابطه ضعف، كما أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يجب أن يكون محبوبًا بين الناس قريبًا من قلوبهم وليس متعاليًا متكبرًا عليهم. إن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يعلل النهي عن هاتين الصفتين بأسلوب توكيدي مما يحفز المخاطَب على الابتعاد عنهما ويزيده تنفيرًا أن الله لا يحب من يتصف بهاتين الصفتين وهو بذلك يتبع طريق الإقناع، المبني على مراقبة الله وتجنب ما لا يحبه، فالسبب الرئيس الذي يجب أن يكون سورًا له ومانعًا من التخلق بهاتين الصفتين هو أن الله لا يحب المتصف بهما، وفي هذا تربية للابن بأن يراعي الله ليس فقط في صلاته وإنما أيضًا في تعامله مع الناس. وقد جيء بفعل يحب منفيًا؛ لأنه لا تسند إلى الله عز وجل الأفعال السلبية فلا يقال: إن الله يكره. وبعد ذلك انتقل لقمان في قوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(152) من آداب التعامل مع الناس إلى أدب النفس من جهة التوسط والاعتدال، فقد هيئة المشية الصحيحة الدالة على الهيبة والوقار والتواضع، والقصد

في المشي يكون بالاعتدال فيه فلا إسراع ولا إبطاء. فإذا كانت مشية المختال تكون بفرط نشاط وازدهاء فإن مشية المقتصد بالتوسط والاعتدال فلا إسراع ولا إبطاء.

ولم يتوقف لقمان عند الحركة في المشي وإنما تجاوزه إلى الصوت في خطابه مع الناس، إذ نهاه عن رفع الصوت وقد ربطه بصوت الحمير، ويسمى صوتها نهيقًا وهو مرتفع عالٍ في كل أحواله وهو غير مستساغ للآذان، وفي الحقيقة إن التشبيه بالحمير في حد ذاته منفر. إن تشبيه الصوت العالي بصوت الحمير من باب الاستعارة وقد جاء من باب الإلماح وليس التصريح، فهو مفهوم ضمنًا فقد جاء قوله: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، مباشرة عقب الأمر بخفض الصوت في ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ والملاحظ أنه قد جاء بصورة قاعدة عامة، وإحالة إلى معهود سابق، وكأننا أمام تذكير بقاعدة تألفها النفوس وتعيها الأسماع؛ فمن المعلوم أن النفوس تعاف الصوت العالي، أضف إلى ذلك أن التشبيه بالحمار أو متعلقاته كالوجه والأذنين... إلخ، من باب التحقير والسخرية.

الخاتمة

- إن أي خطاب يؤتي ثمره ويحقق أهدافه إذا ما اهتم بالتأثير الوجداني والتأثير الفكري أو الإقناعي لدى المخاطَب، وقد اتضح أن هذين التأثيرين متحققان في الآيات موضع الدراسة سواء من جهة عرض المشهد وتقديمه للمتلقي، أو من جهة الخطاب الذي وجهه لقمان عليه السلام لابنه.
- إن القرآن الكريم يعلمنا من طريق المشاهد الخطابية التي يصورها طرق الدعوة إلى الله على اختلاف المخاطبين: كافر معاند، أو مشرك، أوملك جائر، أو ابن، أو أب... إلخ، ويُعد خطاب لقمان لابنه أنموذجًا رائعًا يُحتذى للدعوة إلى الله، وأنموذجًا في خطاب الأبناء وتربيتهم وتوجيههم إلى صلاح الدنيا ونجاة الآخرة، بأسلوب رقيق لطيف يؤنس القلب ويريح النفس ويقنع العقل، من طريق توظيف طاقات اللغة لتحقيق المقاصد والغايات والتأثير على المخاطَب من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإقناعية.
- لقد انتقى لقمان مواعظه بعناية ورتبها بنظام دقيق، ووجها بأسلوب لطيف مؤثر في النفس ومقنع للعقل.
- إن أسلوب لقمان في وعظه ابنه لو اتبعه الوعَّاظ والمربون لأنشؤوا جيلاً واعيًا متفتحًا يسعى إلى الخير والفلاح بقلب منشرح وعقل مدرك، حيث قدم أبهى صورة في الدعوة إلى الله عز وجل بألطف السبل دعوة فيها ما فيها من التلطف والترفق، والرقة، فقد اعتمد في خطابه لابنه على التأثير في النفس والوجدان بأسلوب أخذ بالقلب والنفس ولم ينس نصيب العقل من الإقناع.

- إن النسيج الذي بنيت عليه الوصايا يؤكد أن التأثير النفسي والـتأثير الإقناعي كانا حاضرين بقوة في ترتيبها.

الهوامش والإحلات

(1) الرازي (فخر الدين محمد بن عمر): التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، تح: عماد زكي البارودي، د.ط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د.ت، م4، ج 7،ص 106.
(2) الجرجاني، (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، الطبعة 3، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ودار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992م، ص 89.
(3) الزركشي (أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله) البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص136: 48.
(4) البقاعي، (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تح: عبد الرزاق غالب المهدي، الطبعة 4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م.
(5) المرجع نفسه، ج 1، ص 6.
(6) السيوطي (أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م، ج 1، ص43.
(7) المؤلف نفسه، تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد الله محمد الدرويش، الطبعة2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1987م.
(8) يُكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الدراسات الحديثة إلى جانب ما تم ذكره من دراسات القدماء: فضل (صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت،1992م، خطابي (محمد)، لسانيات النص "مدخل إلى انسجام الخطاب"، الطبعة1، المركز الثقافي العربي، بيروت/ لبنان، 1991م، الفقي (صبحي إبراهيم)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق "دراسة تطبيقية على السور المكية"، الطبعة1، دار قباء، القاهرة، مصر، 2000م.
(9) سورة لقمان، الآية12.
(10) الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عبد الرزاق المهدي، الطبعة2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001م،ج3، ص 497، وابن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير، الطبعة10، دار سحنون، تونس، د.ت، م 10، ج 21 ، ص138.

(11) الآية 2.
(12) الآية 9.
(13) الآية 12.
(14) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2013م، مادة "حَكَمَ".
(15) التفسير الكبير،م 13،ج 25، ص 126.
(16) نظم الدرر، 4، 149.
(17) سورة لقمان، الآيات 2: 3.
(18) السورة نفسها، الآيات 3: 5.
(19) السورة نفسها، الآيات 6: 7.
(20) السورة نفسها، الآية 11.
(21) السورة نفسها، من الآية 11.
(22) السورة نفسها، من الآية 13.
(23) السورة نفسها، من الآية11.
(24) السورة نفسها، من الآية13.
(25) السورة نفسها، الآية10.
(26) السورة نفسها، من الآية12 .
(27) السورة نفسها، من الآية 14.
(28) السورة نفسها، الآيات 12: 13.
(29) السورة نفسها، ، الآية12.
(30) قسم مقدر.
(31) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج 4، ص 85.
(32) م.ن، ص.ن.
(33) م.ن، ص.ن.
(34) الزمخشري، الكشاف،ج 3، ص 499، وأبو حيان (محمد بن يوسف)، البحر المحيط في التفسير، د.ط، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005، ج8 ، ص412.
(35) سورة لقمان، الآية12.
(36) سورة البقرة، الآية 269.
(37) ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن)، زاد المسير في علم التفسير، تح: عبد الرزاق المهدي، الطبعة1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2001م. ص 1100.
(38) مفاتيح الغيب، م 13، ج 25، ص 126.

(39) ابن عاشور، التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 152.
(40) سورة النحل، الآية 125.
(41) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز، مادة "شَكَرَ".
(42) المرجع نفسه، المادة نفسها.
(43) ابن عاشور، التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 152.
(44) سورة إبراهيم، الآية 7.
(45) ص 38.
(46) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، مادة "شكر".
(47) سورة الأعراف، الآية 17.
(48) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة "شَكَرَ".
(49) المرجع نفسه، المادة نفسها.
(50) السمين الحلبي، المادة نفسها.
(51) سورة إبراهيم، الآية 7.
(52) سورة الروم، الآية 44
(53) مفاتيح الغيب، م 13، ج 25، ص 127.
(54) سورة إبراهيم، الآية 34.
(55) سورة النحل، الآية18.
(56) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، مادة "شَكَرَ" و الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، المادة نفسها.
(57) مفاتيح الغيب، م 13، ج 25، ص 127.
(58) الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003م، ج 21، ص 114.
(59) م.ن، ص.ن.
(60) سورة النساء، من الآية11.
(61) سورة البقرة، الآية 233.
(62) سورة سبأ الآية 35.
(63) سورة الحديد، من الآية 20.
(64) سورة المجادلة، الآية 17.
(65) العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، الفروق اللغوية، تح: جمال عبد الغني، الطبعة1، مؤسسة الرسالة، بيروت/لبنان، 2002م، ص13.
(66) سورة يوسف، الآية 38.
(67) سورة البقرة، الآية 133.

(68) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)، المفردات في غريب القرآن، تح: محمد سيد كيلاني، د.ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت، مادة "أَبَوَ".
(69) سورة عبس، الآيات 34: 36.
(70) سورة المعارج، الآيات 11: 14.
(71) سورة هود، الآية 42.
(72) سورة مريم، الآيات 41: 45.
(73) السورة نفسها، الآية 46.
(74) الخليل (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي)، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، د.ط، دار ومكتبة الهلال، 2007م، مادة "وَعَظَ".
(75) الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد)، الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية"، تح: إيميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، مادة "وَعَظَ".
(76) ابن فارس، مادة "وَعَظَ".
(77) ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، الطبعة1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م، مادة "وَعَظَ".
(78) السمين الحلبي (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة1، القاهرة، مصر، 1996م، مادة "وَعَظَ".
(79) الفيومي (أحمد بن محمد بن علي)، المصباح المنير، تح: يوسف الشيخ محمد، د.ط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2014م، مادة "وَعَظَ".
(80) الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، لقاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005م، مادة "وَعَظَ".
(81) المؤلف نفسه، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، وعبد العليم الطحاوي، الطبعة3، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1996م، مادة "وَعَظَ".
(82) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة "زَجَرَ".
(83) الفيروز آبادي، مادة " زَجَرَ".
(84) الزجاج (إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق)، معاني القرآن وإعرابه، الطبعة1، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1988م، ج 4، ص196.
(85) سورة النحل، من الآية 125.

(86) سورة لقمان، الآيات 14: 15.
(87) السورة نفسها، ، من الآية 13.
(88) قيل أيضًا: إنها قد تكون من جملة وصايا لقمان لابنه، أبو حيان، البحر المحيط،ج 8، ص 413.
(89) الزمخشري، الكشاف، ج 3، ص 501.
(90) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(91) معاني القرآن وإعرابه،ج 4، ص196.
(92) الكشاف، ج 3، ص501.
(93) زاد المسير، 1103.
(94) التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 157.
(95) مادة "وَصَى".
(96) سورة البقرة، من الآية 83.
(97) سورة لقمان، من الآية14.
(98) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة "أَنَسَ".
(99) ابن عاشور، التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 157.
(100) سورة لقمان، من الآية14.
(101) معجم مفردات القرآن، الأصفهاني، مادة "وَهَنَ".
(102) التحرير والتنوير م 10، ج21، ص 157.
(103) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(104) المرجع نفسه، 10 م 10، ج21، ص 158.
(105) المرجع نفسه، ابن عاشور، م 10، ج21، ص 160.
(106) المرجع نفسه، م 10، ج21، ص 161.
(107) في ظلال القرآن، ج 5، ص2781.
(108) مادة "صَحب".
(109) معجم مفردات ألفاظ القرآن، المادة نفسها.
(110) الفروق اللغوية، 285.
(111) مقاييس اللغة، مادة "عرف".
(112) معجم ألفاظ القرآن، مدة "عرف"، وعمدة الحفاظ، المادة نفسها، وبصائر ذوي التمييز، المادة نفسها.
(113) ابن فارس (أبو الحسين أحمد) مقاييس اللغة، تح: إبراهيم شمس الدين، الطبعة1، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2012م. المادة "سَبَلَ".
(114) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، المادة نفسها.
(115) التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 161.

(116) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(117) سورة لقمان، من الآية 13.
(118) سنتناول كل نداء في موضعه الوارد فيه.
(119) التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 155.
(120) م.ن، ص.ن
(121) سورة النساء، الآية 48.
(122) سورة المائدة، من الآية 72.
(123) لمزيد من المعلومات حول لفظ الجلالة "الله" ، السنباطي (أحمد بن أحمد)، شرح البسملة والحمدلة، تح: مها عبد العزيز عبد الغني الحبَّار، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2018م، ص 165: 177، والمحوجب، (أبو عبد الله محمد بن محمد بن حمدون الفاسي) الفوائد المسجلة في شرح البسملة والحمدلة، تح: علي قاسمي التمسماني، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2018م، ص172: 197.
(124) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ظَلَمَ).
(125) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه،ج 4، ص 197، الرازي، التفسير الكبير، م13، ج 25، ص 127. وابن عاشور، التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 155.
(126) سورة الذاريات، الآية 56.
(127) سورة البقرة من الآية 57، وسورة الأعراف من الآية 160.
(128) سورة النحل من الآية 118.
(129) ابن عاشور، التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 155.
(130) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(131) سورة لقمان، الآية 16
(132) التحرير والتنوير، م 10، ج21، ص 162.
(133) سورة لقمان، الآيات 17: 19.
(134) التحرير والتنوير، ابن عاشور، م 10، ج21، ص 164.
(135) سورة لقمان، من الآية17.
(136) التحرير والتنوير م 10، ج21، ص 165.
(137) الكشاف، الزمخشري، ج 3، ص 503.
(138) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(139) الجوهري، الصحاح، مادة (صَعَرَ).
(140) الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة (صَعَرَ).

(141) النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد)، معاني القرآن، تح: محمد علي الصابوني، الطبعة1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1409هـ،ج 5، ص 288.
(142) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(143) التحرير والتنوير، ابن عاشور، م 10، ج21، ص 167.
(144) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج 5، ص2790.
(145) التحرير والتنوير، ابن عاشور،م 7، ج 15، ص 103.
(146) سورة الإسراء، الآية 37.
(147) سورة الفرقان، من الآية 63.
(148) سورة آل عمران، من الآية 137.
(149) التحرير والتنوير، م 7، ج 15، ص 103.
(150) مقاييس اللغة، مادة "سَيَرَ".
(151) لسان العرب، المادة نفسها.
(152) سورة لقمان، الآية 19.

المراجع والمصادر

1. ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2001م.
2. ابن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير، الطبعة10، دار سحنون، تونس، د.ت.
3. ابن فارس (أبو الحسين أحمد) مقاييس اللغة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الطبعة1، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2012م.
4. ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، الطبعة1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1997م.
5. أبو حيان (محمد بن يوسف)، البحر المحيط في التفسير، د.ط، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2005.
6. الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003م.
7. البقاعي (برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، الطبعة 4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م.
8. الجرجاني، (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة 3، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ودار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، 1992م.
9. الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حمَّاد)، الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية"، تحقيق: إيميل بديع يعقوب ومحمد نبيل طريفي، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

10. حجاج (جهاد)، الوصايا "وصايا لقمان - الوصايا العشر- من وصايا الرسول"، د.ط، دار العلم والإيمان، مصر، دسوق، 2007.

11. خطابي (محمد)، لسانيات النص "مدخل إلى انسجام الخطاب"، الطبعة1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1991م.

12. الخليل (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، د.ط، دار ومكتبة الهلال، 2007م.

13. الرازي (فخر الدين محمد بن عمر): التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، تحقيق: عماد زكي البارودي، د.ط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، د.ت.

14. الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد):

-معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2013م.
- المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، د.ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

15. الزجاج (إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق)، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة1، 1988م.

16. الزركشي (أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت

17. الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2001م.

18. السمين الحلبي (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة1، القاهرة، مصر، 1996م.

19. السنباطي (أحمد بن أحمد)، شرح البسملة والحمدلة، تحقيق: مها عبد العزيز عبد الغني الحبَّار، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2018م.

20. السيوطي (أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن):

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988م.

-تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، الطبعة2، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1987م.

21. الطهطاوي (علي أحمد عبد العال) هداية الولدان شرح وصايا لقمان، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م.

22. العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، الفروق اللغوية، تحقيق: جمال عبد الغني، الطبعة1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2002م.

23. العواجي (محمد عبد العزيز)، نظرات وتأملات إيمانية في وصايا لقمان في القرآن " دراسة تفسيرية موضوعية"، د.ط، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، 2006م.

24. فضل (صلاح)، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت،1992م.

25. الفقي (صبحي إبراهيم)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق "دراسة تطبيقية على السور المكية"، الطبعة1، دار قباء، القاهرة، مصر، 2000م.

26. الفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب):

-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، وعبد العليم الطحاوي، الطبعة3، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1996م.

-القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة8، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2005م.

27. الفيومي (أحمد بن محمد بن علي)، المصباح المنير، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، د.ط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2014م.

28. قطب (سيد)، في ظلال القرآن، الطبعة25، دار الشروق، مصر، 1996م.

29. المحوجب، (أبو عبد الله محمد بن محمد بن حمدون الفاسي) الفوائد المسجلة في شرح البسملة والحمدلة، تحقيق: علي قاسمي التمسماني، الطبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2018م.

30. النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد)، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، الطبعة1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1409هـ.